أسلوب التقديم والتأخير
في
تنزيل الحكيم الخبير

إعداد

د/ مصطفى شعبان البسيوني مسعد

أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

المقدمــة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً، والصلاة والسلام على من أوتى جوامع الكلم الذى أرسله ربه إلى خير الأمم ، فهداها للتي هي أقوم بشرع أتم عليها به النعم ، وعلى آله وأصحابه وكل من اقتفى أثره واستن بسنته إلى يوم الحشر الأعظم .

وبعــد

فمظاهر إعجاز كتاب الله لا تتناهى ، وأساليبه لا تحصى، وفيوضاته لا تنقطع ، وكلماته لا تنفد ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [آية : ١٠٩ الكهف] .

فكل كتاب يَرِثٌ كلامه باستدامة النظر فيه ، وتنقطع الأفهام عنه ، وينضب معينه إلا كتاب ربى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من تنزيل من حكيم حميد ، وفى هذه الدراسة إبراز لبعض مظاهر إعجازه في براعة أسلوبه وتفنن عباراته وإحكام نظمه وجودة سبكه ؛ لتعلقها بمبحث من مباحث علم المعاني [١] .

وهو العلم الذى يدرك به إعجاز القرآن الكريم من جهة ما خصه الله به من جودة السبك وحسن الرصف وبراعة التركيب ، ولطف الإيجاز ، وما اشتمل عليه من سهولة التركيب وجزالة كلماته ، وعذوبة ألفاظه وسلامتها إلى غير ذلك من محاسنه التي أقعدت العرب عن مناهضته ، وحارت عقولهم أمام فصاحته وبلاغته ، فمن فيض الله علىَّ أن

---

(١) علم المعاني هو علم يعرف به أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال ، وقيل : هو العلم الذى يحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى الذى يريده المتكلم لإيصاله إلى ذهن السامع . انظر : الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ١ / ٥٢ ، ط : مكتبة الآداب وجواهر البلاغة للسيد الهاشمي ، ص ٣ ، ط : دار الكتب العلمية .

هداني لهذه الدراسة التي كنت بمنأى عنها لولا توفيقه ورعايته ، وبعد طول نظر وتأمل في كتب علوم القرآن استوقفتني عبارة الإمام السيوطي – رحمه الله– في كتابه الإتقان عند حديثه عن أنواع المقدم والمؤخر فقال : الأول : مَا أَشْكَلَ مَعْنَاهُ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ فَلَمَّا عُرِفَ أَنَّهُ مِنْ بَابِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ اتَّضَحَ وَهُوَ جَدِيرٌ أَنْ يُفْرَدَ بِالتَّصْنِيفِ [١] . فحدثتني نفسي بالبحث والدراسة في هذا الموضوع لعلي أظفر بهذا الشرف وأنال قصب السبق في إفراد هذا النوع بالبحث والدراسة ، ولا يتم هذا إلا بتوفيقه تعالى وعونه " وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب " .

وقد قسمت البحث إلى : مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة .

المقدمة : ألمحت فيها بمظاهر الإعجاز القرآني وسبب اختيار لهذا الموضوع .

التمهيد : تضمن نبذة مختصرة عن بلاغة القرآن في استعماله لأسلوب التقديم والتأخير، والتعريف به ، وأسبابه ، وأحواله .

المبحث الأول : أنواع التقديم والتأخير .

المبحث الثاني : أسلوب التقديم والتأخير بين المؤيدين والمعارضين .

المبحث الثالث : نماذج مختارة من أسلوب التقديم والتأخير في تنزيل الحكيم الخبير .

الخاتمة : وتتضمن نتيجة البحث والدراسة .

واتبعت في هذه الدراسة الخطوات المنهجية التالية :

أ – قمت بعزو الآيات إلى سورها .

ب – قمت بتخريج الأحاديث النبوية الواردة في البحث تخريجاً مفصلاً من أمهات الكتب الحديثية المعتبرة لدى علماء التخريج فذكرت اسم المصدر والكتاب والباب ورقم الجزء والصفحة واسم الطبعة .

ج – الاستشهاد بالشعر العربي على جواز القول بالتقديم والتأخير في كلام العرب،

---

(١) انظر : الإتقان في علوم القرآن ، النوع الرابع والأربعون معرفة مقدمه ومؤخره ٣ / ٣٨ ، ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم سنة ١٩٧٤م .

وعزوت الأبيات الشعرية إلى قائليها وذكرت الديوان ورقم الصفحة إن وجد .

د – الترجمة لبعض الأعلام المبهمة في هذا البحث .

هـ – ذكرت في هذه الدراسة أقوال أئمة اللغة والتفسير، وعزوت الأقوال إلى أصحابها من مظانها مع ذكر اسم المصدر والطبعة وسنة الطبع بالهامش عند ورودها في المرة الأولى. حتى تخرج الدراسة بصورتها المنشودة التي عمدت إليها راجياً المولى عز وجل أن يكتب لي السداد والتوفيق في المشاركة بوضع لبنة من لبنات هذا الصرح الشامخ في علوم القرآن، فهو حسبي وعليه اعتمادي وموئلي.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

راجي عفو ربه

د / مصطفى شعبان البسيوني مسعد

أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

تمهيـد

أنزل رب العالمين كتابه الكريم على خاتم المرسلين بلسان عربي مبين فقال جل ذكره وتقدست أسماؤه : وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ – الشعراء الآيات١٩٢ إلى ١٩٥– وهذا اللسان العربي تميز بفنون القول وبراعة البيان ، وكان له سننه المتنوعة في التعبير عن المعنى الواحد بأساليب مختلفة "ومن سُنن العرب تقديمُ الكلام وهو في المعنى مُؤخّر، وتَأخِيرُهُ وهو في المعنى مُقَدَّم. كقول ذي الرُّمّة [١] :

مـــا بـــالُ عينِـــكَ منهـــا المـــاءُ يَنْســـكبُ [٢]

أراد : ما بالك عينك ينسكب منها الماء [٣] .

وفن التقديم والتأخير فن رفيع يعرفه أصحاب الذوق البلاغي ، والإحساس البياني، ومن كان على بصيرة بأساليب العربية ودروبها في التعبير ، وهى دقائق ونكات لطيفة لا يفطن إليها إلا من أُوتى حظاً من معرفة مواقع الكلام، وما يعقلها إلا العالمون.

وقد تبوأ القرآن الكريم في هذا الفن – وغيره من فنون القول والعلم – المقام الأسمى وبلغ الذروة العليا في وضع كل حرف من حروفه ، وكل كلمة من كلماته في

---

(١) ذي الرمة هو أبو الحارث غيلان بن عقبة بن بهيش بن مسعود العدوي ، من مضر. من فحول الطبقة الثانية في عصره ، قال أبو عمرو بن العلاء : افتتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة . قال جرير : لو خرس ذو الرمة بعد قصيدته (ما بال عينيك منها الماء ينسكب) لكان أشعر الناس . توفي بأصبهان ، وقيل : بالبادية . انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥١٥/١ ، ط : دار الحديث – القاهرة ١٤٢٣ هـ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤ / ١١ وما بعدها ، ط : دار صادر – بيروت سنة ١٩٧١ م .

(٢) ديوان ذي الرمة ص ١ .

(٣) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لابن فارس ١ / ١٨٩ ، ط : محمد علي بيضون ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م .

موطنها الذي تستحقه في نظم الآية بحيث تستقر في مكانها المناسب ولو تحول بها إلى غيره لم تؤد مؤداها في إفادة المعنى وفصاحة الكلام ، ولم يكتف القرآن الكريم في وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله. فترى التعبير متسقاً متناسقاً مع غيره من التعبيرات كأنه لوحة فنية واحدة مكتملة متكاملة .

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي – رحمه الله– : « وما يشذ في القرآن الكريم حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز ؛ حتى إنك لو تدبرت الآيات التي لا تقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة ، وهي بالطبع مظنة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز ؛ فإنك ترى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وجهات سردها ، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيره عنه ، لنظم حروف ومكانه من النطق في الجملة ؛ أو لنكتة أخرى من نكت المعاني التي وردت فيها الآية بحيث يوجد شيئاً فيما ليس فيه شيء .

تأمل قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ [سورة الأعراف : ١٣٣] فإنها خمسة أسماء ، أخفها في اللفظ (الطوفان والجراد والدم) وأثقلها (الْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ) فقدم (الطوفان) لمكان المدين فيها ؛ حتى يأنس اللسان بخفتها ؛ ثم الجراد وفيها كذلك مد ؛ ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفهما في اللسان وأبعدهما في الصوت لماكن تلك الغُنة فيه ؛ ثم جيء بلفظة (الدم) آخراً ، وهي أخف الخمسة وأقلها حروفاً ؛ ليسرع اللسان فيها ويستقيم لها ذوق النظم ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب .

وأنت فمهما قلَّبتَ هذه الأسماء الخمسة ، فإنك لا ترى لها فصاحة إلا في هذا الوضع ؛ لو قدمت أو أخرت لبادرك التهافت والتعثر ، ولأعنتكَ أن تجيء منها بنظم فصيح ، ثم لا ريب أحالك ذلك عن قصد الفصاحة وقطَعَك دون غايتها .

ثم لخرجَتِ الأسماء في اضطراب النطق على ذلك بالسواء ؛ ليس يظهر أخفها من أثقلها ؛ فانظر كيف يكون الإعجاز فيها ليس فيه إعجاز بطبيعته "[١] .

فكل لفظة من ألفاظه اقتضت الحكمة الإلهية وضعها في مكانها المناسب سواء أكانت على أصلها في ترتيب النظم أو قدمت وأخرت عن موضعها وفى ذلك من الدقائق والأسرار ما لا يخفي على اللسن الفصيح .

ويمكن تعريف أسلوب التقديم والتأخير هو تقديم ما رتبته التأخير ، وتأخير ما رتبته التقديم لدواعي اقتضت ذلك .

وذكر صاحب البرهان أسباب التقديم والتأخير منها :

١ – أَنْ يَكُونَ فِي التَّأْخِيرِ إِخْلَالٌ بِبَيَانِ الْمَعْنَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ [غافر : ٢٨] فَإِنَّهُ لَوْ أَخَّرَ قَوْلَهُ : « مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ » فَلَا يُفْهَمُ أَنَّهُ مِنْهُمْ .

٢ – أَنْ يَكُونَ فِي التَّأْخِيرِ إِخْلَالٌ بِالتَّنَاسُبِ فَيُقَدَّمَ لِمُشَاكَلَةِ الْكَلَامِ وَلِرِعَايَةِ الْفَاصِلَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] ، بِتَقْدِيمِ " إِيَّاهُ " عَلَى " تَعْبُدُونَ " لِمُشَاكَلَةِ رُءُوسِ الْآيِ وكقـــوله : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه : ٦٧] فإنه لو أخر " في نفسه " عن " موسى " فَاتَ تَنَاسُبُ الْفَوَاصِلِ لِأَنَّ قَبْلَهُ : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ٦٦] وبعده : " إنك أنت الأعلى" .

٣ – لِعِظَمِهِ وَالِاهْتِمَامِ بِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ الْفُصَحَاءِ إِذَا أَخْبَرَتْ عَنْ مُخْبَرٍ مَا – وَأَنَاطَتْ بِهِ حُكْمًا – وَقَدْ يُشْرِكُهُ غَيْرُهُ فِي ذَلِكَ الْحُكْمِ أَوْ فِيمَا أُخْبِرَ بِهِ عَنْهُ وَقَدْ عَطَفَتْ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ بِالْوَاوِ الْمُقْتَضِيَةِ عَدَمَ التَّرْتِيبِ – فَإِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعي ص١٦١ط دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الثامنة سنة ١٤٢٥/٢٠٠٥م

إِنَّمَا يَبْدَءُونَ بِالْأَهَمِّ وَالْأَوْلَى . قَالَ سِيبَوَيْهِ : كَأَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ الَّذِي شَأْنُهُ أَهَمُّ لَهُمْ وَهُمْ بِبَيَانِهِ أَعْنَى وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا يُهِمَّانِهِمْ وَيَعْنِيَانِهِمْ. انْتَهَى .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [سورة البقرة : ٤٣] فَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ لِأَنَّهَا أَهَمُّ .

وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [التغابن : ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفاتحة : ٥] فَقَدَّمَ الْعِبَادَةَ لِلِاهْتِمَامِ بِهَا .

١ – أَنْ يَكُونَ الْخَاطِرُ مُلْتَفَتًا إِلَيْهِ وَالْهِمَّةُ مَعْقُودَةٌ بِهِ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ [الأنعام : ١٠٠] بِتَقْدِيمِ الْمَجْرُورِ عَلَى الْمَفْعُولِ الْأَوَّلِ لِأَنَّ الْإِنْكَارَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْجَعْلِ لِلَّهِ لَا إِلَى مُطْلَقِ الْجَعْلِ .

٢ – أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيمُ لِإِرَادَةِ التَّبْكِيتِ وَالتَّعْجِيبِ مِنْ حَالِ الْمَذْكُورِ كَتَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ الثَّانِي عَلَى الْأَوَّلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ [الأنعام : ١٠٠] وَالْأَصْلُ" الْجِنَّ شُرَكَاءَ ، وَقُدِّمَ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ التَّوْبِيخُ وَتَقْدِيمُ الشُّرَكَاءِ أَبْلَغُ فِي حُصُولِهِ .

٣ – الِاخْتِصَاصُ ، وَذَلِكَ بِتَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ وَالْخَبَرِ والظرف والجار والمجرور ونحوها على الفعل كقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، أَيْ نَخُصُّكَ بِالْعِبَادَةِ فَلَا نَعْبُدُ غَيْرَكَ .

وَتقديم الْخَبَرُ كَقَوْلِهِ : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى ﴾ [مريم : ٤٦] وَقَوْلِهِ : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢] .

وَتَقْدِيمُ الجار والمجرور والظرف فِيهِ تَفْصِيلٌ فَإِنْ كَانَ فِي الْإِثْبَاتِ دَلَّ عَلَى الِاخْتِصَاصِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦ ﴾ [الغاشية : ٢٥ ، ٢٦] وكذلك : ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ [التغابن : ١] فَإِنَّ ذَلِكَ يُفِيدُ اخْتِصَاصَ

ذَلِكَ بِاللَّهِ تَعَالَى .

وَإِنْ كَانَ فِي النَّفْيِ فَإِنَّ تَقْدِيمَهُ يُفِيدُ تَفْضِيلَ الْمَنْفِيِّ عَنْــهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الصافات : ٤٧] ، أَيْ لَيْسَ فِي خَمْرِ الْجَنَّةِ مَا فِي خَمْرَةِ غَيْرِهَا مِنَ الْغَوْلِ وَأَمَّا تَأْخِيرُهُ فَإِنَّهَا تُفِيدُ النَّفْيَ فَقَطْ كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﭐﭑﭒﭓﭔ [البقرة : ٢] فكذلك إذا قلنا لا عيب فِي الدَّارِ كَانَ مَعْنَاهُ نَفْيَ الْعَيْبِ فِي الدَّارِ وَإِذَا قُلْنَا لَا فِي الدَّارِ عَيْبٌ كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّهَا تُفَضَّلُ عَلَى غَيْرِهَا بِعَدَمِ الْعَيْبِ [١] .

وفي كلّ الأحوال لا يخلو التقديم والتأخير من أربعة أمور :

١ – ما يفيد زيادة في المعنى مع تحسين في اللفظ، وذلك هو الغاية القصوى، وإليه المرجع في فنون البلاغة، والعمدة في هذا هو الكتاب الكريم انظر قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة : ٢٢، ٢٣] تجد أن تقديم الجار والمجرور في هذا قد أفاد التخصيص، وأن النظر لا يكون إلا لله ، مع جودة الصياغة وتناسق الفاصلة .

٢ – ما يفيد زيادة في المعنى فحسب نحو: ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٦] فتقديم المفعول في هذا لتخصيصه بالعبادة دون سواه، ولو أخر لم يفد الكلام ذلك .

٣ – ما يتكافأ فيه التقديم والتأخير، وليس لهذا الضرب شيء من الملاحة ، نحو :

وكانــت يــدي مــلأى بــه ثــم أصــبحت «بحمــد إلهــي، وهــي منــه ســليب [٢]

---

(١) انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣ / ٢٣٣ إلى ٢٣٦ بتصرف ، ط : دار إحياء الكتب العربية تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم الأوبي سنة ١٩٥٧م .

(٢) البيت في الكامل في اللغة والأدب للمبرد ٤ / ٢٠ ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم ، ط : دار الفكر العربي – القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .
التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا" للمبرد ص ١٧٣ ، تحقيق : إبراهيم محمد حسن الجمل .

فتقديره : ثم أصبحت وهي منه سليب بحمد الله .

٤ – ما يختل به المعنى ويضطرب ، وذلك هو التعقيد اللفظي ، أو المعاظلة [١] التي تقدمت كتقديم الصفة على الموصوف ، والصلة على الموصول ، ونحو ذلك ، كقول الفرزدق :

إلى ملك ما أمه من محارب أبوه ولا كانت كليب تصاهره [٢]

إذ تقديره إلى ملك أبوه ما أمه من محارب ، أي : ما أم أبيه منهم ، ولا شك أن هذا لا يفهم من كلامه للنظرة الأولى، بل يحتاج إلى تأمل ورفق حتى يفهم المراد منه [٣].

وسيأتي تفصيل ذلك في المبحث التالي في الحديث عن أنواع التقديم والتأخير والله الموفق .

الناشر : نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

(١) ومن عيوب اللفظ : المعاظلة . المعاظلة : وهي التي وصف عمر بن الخطاب زهيراً بمجانبته لها أيضاً ، فقال : وكان لا يعاظل بين الكلام .
وسألت أحمد بن يحيى عن المعاظلة ، فقال : مداخلة الشيء في الشيء ، يقال : تعاظل الجراداتان ، وعاظل الرجل المرأة : إذا ركب أحدهما الآخر . نقد الشعر لقدامة بن جعفر مطبعة الجوائب – قسطنطينية ، الطبعة الأولى سنة ١٣٠٢ هـ .

(٢) لم أعثر عليه في ديوانه وهو في الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ١٠ / ٣١٠ ، ط : دار الفكر ، تحقيق : على مهنا ، وسمير جابر . والخصائص لابن جنى ٢ / ٣٩٤ ، ط : عالم الكتب – بيروت ، تحقيق : محمد على النجار .

(٣) علوم البلاغة البيان المعاني البديع أحمد مصطفى المراغي ص ١٠٠ ، ط : بدون . وانظر : البلاغة العربية لابن حبنكة الميدانى ١ / ٣٦٣ ، ط : دار القلم – دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م .

المبحث الأول

أنواع التقديم والتأخير

ذكر صاحب البرهان – رحمه الله– في تقسيمه للمقدم والمؤخر نوعين ، وتبعه صاحب الاتقان في ذلك وإن اختلفا في اللفظ لكن القسمة واحدة في المعنى وإليك بيان ذلك :

النَّوْعُ الأَوَّلُ : مَا قُدِّمَ وَالْمَعْنَى عَلَيْهِ – أي ما لم يشكل معناه بحسب ظاهر اللفظ – وَدواعيهُ كَثِيرَةٌ ذكر الإمام الزركشي مِنْهَا خمسا وعشرين غرضا وهى كالتالي :

أَحَدُهَا : السَّبْقُ . وَهُوَ أَقْسَامٌ :

أ – مِنْهَا السَّبْقُ بِالزَّمَانِ وَالْإِيجَادِ : مثال قَوْلُهُ تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ ﴾ [سورة الحج : ٧٥] فَإِنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ تَفْضِيلُ الْبَشَرِ وَإِنَّمَا قدم الملك لسبقه في الوجود .

ب – تَقْدِيمُ الْمَكَانِ عَلَى الزَّمَانِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [سورة الأنعام : ١] أَيِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

ج– سَبْقُ تَنْزِيهٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٥] فَبَدَأَ بالرَّسُولِ قَبْلَ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ قَالَ : " كُلٌّ آمن بالله وملائكته " فَبَدَأَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ لِأَنَّهُ قَدْ يَحْصُلُ بِدَلِيلِ الْعَقْلِ وَالْعَقْلُ سَابِقٌ فِي الْوُجُودِ عَلَى الشَّرْعِ .

الثَّانِي : بِالذَّاتِ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ ﴾ . وَنَحْوِهِ ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ ﴾ [سورة المجادلة : ٧] وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَعْدَادِ كُلٌّ مَرْتَبَةٍ هِيَ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَى مَا فَوْقَهَا بِالذَّاتِ .

الثَّالِثُ : بِالْعِلَّةِ وَالسَّبَبِيَّةِ . كَتَقْدِيمِ " الْعَزِيزِ " عَلَى " الْحَكِيمِ " لِأَنَّهُ عَزَّ فَحَكَمَ

وَتَقْدِيمِ " الْعَلِيمِ " عَلَى " الْحَكِيمِ " لأن الإتقان ناشئ عَنِ الْعِلْمِ .

وَمِنْهُ قَوْلُهُ : " إِيَّاكَ نعبد وإياك نستعين " [الفاتحة : ٥] قُدِّمَتِ الْعِبَادَةُ لِأَنَّهَا سَبَبُ حُصُولِ الْإِعَانَةِ .

الرَّابِعُ : بِالرُّتْبَةِ . ومثال ذلك قَوْلِهِ تعالى : "غَفُورٌ رَحِيمٌ" فَإِنَّ الْمَغْفِرَةَ سَلَامَةٌ وَالرَّحْمَةَ غَنِيمَةٌ وَالسَّلَامَةُ مَطْلُوبَةٌ قَبْلَ الْغَنِيمَةِ ، وَإِنَّمَا تَأَخَّرَتْ فِي آيَةِ سَبَإٍ فِي قوله : " الرحيم الغفور " لِأَنَّهَا مُنْتَظِمَةٌ فِي سِلْكِ تَعْدَادِ أَصْنَافِ الْخَلْقِ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ وَغَيْرِهِمْ وَهُوَ قَوْلُهُ : "يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الغفور " [سورة سبأ : ٢] فَالرَّحْمَةُ شَمِلَتْهُمْ جَمِيعًا وَالْمَغْفِرَةُ تَخُصُّ بَعْضًا وَالْعُمُومُ قَبْلَ الْخُصُوصِ بِالرُّتْبَةِ .

الْخَامِسُ : بِالدَّاعِيَةِ . كَتَقَدُّمِ الْأَمْرِ بِغَضِّ الْأَبْصَارِ عَلَى حِفْظِ الْفُرُوجِ فِي قَوْلَهُ تَعَالَى : " قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ويحفظوا فروجهم " [سورة النور : ٣٠] لِأَنَّ الْبَصَرَ دَاعِيَةٌ إِلَى الْفَرْجِ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ " (١) .

السَّادِسُ : التَّعْظِيمُ . كقوله تعالى : " شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ والملائكة وأولو العلم " [سورة آل عمران : ١٨] . وقَوْلِهِ : " وَمَنْ يطع الله والرسول " [سورة النساء : ٦٩] .

السَّابِعُ : الشَّرَفُ وَهُوَ أَنْوَاعٌ .

أ – شَرَفُ الرِّسَالَةِ : كَقَوْلِهِ تَعَالَى : " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نبي" [

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٤ / ٢١٨ ، ط : مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١م ، وصحيح ابن حبان : كتاب الحدود ، باب الزنى وحده ١٠ / ٢٦٧ ، ط : مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية سنة ١٩٩٣م ، والحديث صححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ٨ / ٣٧ ، ط : المكتب الإسلامي – بيروت – الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥م .

سورة الحج : ٥٢] فَإِنَّ الرَّسُولَ أَفْضَلُ مِنَ النَّبِيِّ خِلَافًا لِابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ . وَقَوْلِهِ : " الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأمي" [سورة الأعراف : ١٥٧] .

ب – شَرَفُ الذُّكُورَةِ : كَقَوْلِهِ تَعَالَى : "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ والمسلمات " [سورة الأحزاب : ٣٥] . وقوله: " ألكم الذكر وله الأنثى " [سورة النجم: ٢١] .

ج – شَرَفُ الْحُرِّيَّةِ : كَقَوْلِهِ تَعَالَى : "الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بالعبد" [سورة البقرة : ١٧٨] .

د – شَرَفُ الْعَقْلِ : كَقَوْلِهِ تَعَالَى : "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ من في السماوات والأرض والطير صافات" [سورة النور : ٤١] .

هـ – شَرَفُ الْإِيمَانِ : كَقَوْلِهِ تَعَالَى : "وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يؤمنوا" [سورة الأعراف : ٨٧]

و – شَرَفُ الْعِلْمِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : "قُلْ هَلْ يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ [سورة الزمر : ٩] .

ز – شَرَفُ الْحَيَاةِ : كَقَوْلِهِ تَعَالَى : "يُخْرِجُ الْحَيَّ من الميت ويخرج الميت وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ [سورة الروم : ١٩] . وقوله : "وما يستوي الأحياء ولا الأموات" [سورة فاطر : ٢٢] . وَأَمَّا تَقْدِيمُ الْمَوْتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : "الَّذِي خلق الموت والحياة " [سورة الملك : ٢] فَمِنْ تَقَدُّمِ السَّبْقِ بِالْوُجُودِ وَقَدْ سَبَقَ .

ح – شرف المعلوم : نحو "عالم الغيب والشهادة وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ [سورة الأنعام : ٧٣] فَإِنَّ عِلْمَ الْغَيْبِيَّاتِ أَشْرَفُ مِنَ الْمُشَاهَدَاتِ .

ت – شَرَفُ الْإِدْرَاكِ : كَتَقْدِيمِ السَّمْعِ عَلَى الْبَصَرِ وَالسَّمِيعِ عَلَى الْبَصِيرِ لِأَنَّ السَّمْعَ أَشْرَفُ عَلَى أَرْجَحِ الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ جَمَاعَةٍ .

ك – شَرَفُ الْمُجَازَاةِ ، كَقَوْلِهِ : "مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة " [سورة الأنعام : ١٦٠] .

ل – شَرَفُ الْإِبَاحَةِ لِلْإِذْنِ بِهَا : كَقَوْلِهِ تَعَالَى : "وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حلال وهذا حرام" [سورة النحل : ١١٦] ، وإنما تقديم الْحَرَامُ فِي قَوْلِهِ : "فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا" [سورة يونس : ٥٩] فَلِلزِّيَادَةِ فِي التَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ أَوْ لِأَجْلِ السِّيَاقِ .

م – الشَّرَفُ بِالْفَضِيلَةِ : كَقَوْلِهِ تَعَالَى : "وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصالحين" [سورة النساء : ٦٩] .

الثامن : الغلبة والكثرة : كقوله تعالى : " ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ [سورة فاطر : ٣٢] " قَدَّمَ الظَّالِمَ لِكَثْرَتِهِ ثُمَّ الْمُقْتَصِدَ ثُمَّ السَّابِقَ .

التَّاسِعُ : سَبْقُ مَا يَقْتَضِي تَقْدِيمَهُ . وَهُوَ دَلَالَةُ السِّيَاقِ : كقوله : "وجعلناها وابنها آية للعالمين" [سورة الأنبياء : ٩١] لِأَنَّ السِّيَاقَ فِي ذِكْرِ مَرْيَمَ فِي قَوْلِهِ : "والتي أحصنت فرجها" وَلِذَلِكَ قَدَّمَ الِابْنَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَكَانِ قَالَ تَعَالَى: "وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً" [سورة المؤمنون : ٥٠] .

العاشر : مراعاة اشتقاق اللفظ . كقوله : " لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ " [سورة المدثر : ٣٧] .

الْحَادِيَ عَشَرَ : لِلْحَثِّ عَلَيْهِ خِيفَةً مِنَ التَّهَاوُنِ بِهِ . كَتَقْدِيمِ تَنْفِيذِ الْوَصِيَّةِ عَلَى وَفَاءِ الدَّيْنِ فِي قَوْلِهِ : "مِنْ بعد وصية يوصي بها أو دين" [سورة النساء : ١١] فَإِنَّ وَفَاءَ الدَّيْنِ سَابِقٌ عَلَى الْوَصِيَّةِ لَكِنْ قَدَّمَ الْوَصِيَّةِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَسَاهَلُونَ بِتَأْخِيرِهَا بِخِلَافِ الدين .

الثَّانِيَ عَشَرَ : لِتَحَقُّقِ مَا بَعْدَهُ وَاسْتِغْنَائِهِ هُوَ عَنْهُ فِي تَصَوُّرِهِ . كَقَوْلِهِ : "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" [سورة البقرة : ٢٧٧] .

الثَّالِثَ عَشَرَ : الِاهْتِمَامُ عِنْدَ الْمُخَاطَبِ . كَقَوْلِهِ : "وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بأحسن منها أو ردوها" [سورة النساء : ٨٦] . وَقَوْلِهِ: "ولذي القربى واليتامى والمساكين" [سورة الأنفال : ٤١] لِفَضْلِ الصَّدَقَةِ عَلَى الْقَرِيبِ .

الرَّابِعَ عَشَرَ : لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُ مُطْلَقٌ لَا مُقَيَّدٌ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى : "وَجَعَلُوا لله شركاء الجن" [سورة الأنعام : ١٠٠] ، على القول بأن الله في موضع المفعول الثاني ل «جعل» وشركاء، مفعول أول. ويكون "الجن" في كلام ثان مقدر، كأنه قيل: فمن جعلوا شركاء ؟ قيل: الجن . وهذا يقتضى وقوع الإنكار على جعلهم "لله شركاء" على الإطلاق، فيدخل بشركة غير الجن، ولو أخر فقيل: وجعلوا الجن شركاء لله، وكان الجن مفعولا أولا وشركاء ثانيا، فتكون الشركة مقيدة غير مطلقة، لأنه جرى على الجن، فيكون الإنكار توجه لجهل المشاركة للجن خاصة، وليس كذلك.

الْخَامِسَ عَشَرَ : لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ السَّبَبَ مُرَتَّبٌ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى: "يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ" [سورة التوبة : ٣٥] قَدَّمَ الْجِبَاهَ ثُمَّ الْجُنُوبَ لِأَنَّ مَانِعَ الصَّدَقَةِ فِي الدُّنْيَا كَانَ يَصْرِفُ وَجْهَهُ أَوَّلًا عَنِ السائل ثم ينوه بِجَانِبِهِ ثُمَّ يَتَوَلَّى بِظَهْرِهِ .

السَّادِسَ عَشَرَ : التَّنَقُّلُ . وَهُوَ أَنْوَاعٌ :

أ – إِمَّا مِنَ الْأَقْرَبِ إِلَى الْأَبْعَدِ ، كقوله : "يا أيها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فراشا والسماء بناء" [سورة البقرة : ٢١ ، ٢٢] قَدَّمَ ذِكْرَ الْمُخَاطَبِينَ عَلَى مَنْ قَبْلَهُمْ وَقَدَّمَ الْأَرْضَ عَلَى السَّمَاءِ .

ب – وَإِمَّا بِالْعَكْسِ – أي من الأبعد إلى الأقرب : كَقَوْلِهِ فِي أَوَّلِ الْجَاثِيَةِ : "إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وما يبث من دابة آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ " [سورة الجاثية ٣ ، ٤] .

ج – وَإِمَّا مِنَ الْأَعْلَى كَقَوْلِهِ : " شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إله إلا هو وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [سورة آل عمران : ١٨] . وَقَوْلِهِ: " مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ" [سورة هود : ٤٩] .

د – وإما من الأدنى كقوله : "لا تأخذه سنة ولا نوم" [سورة البقرة: ٢٥٥] . وقوله "ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة" [سورة التوبة : ١٢٢] .

السابع عشر : الترقي . كقوله : "أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يبطشون بها" الْآيَةَ [سورة الأعراف : ١٩٥] ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ بَدَأَ مِنْهَا بِالْأَدْنَى لِغَرَضِ الترقي لأن منفعة الرَّابِعِ أَهَمُّ مِنْ مَنْفَعَةِ الثَّالِثِ فَهُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَمَنْفَعَةَ الثَّالِثِ أَعَمُّ مِنْ مَنْفَعَةِ الثَّانِي وَمَنْفَعَةَ الثَّانِي أَعَمُّ مِنْ مَنْفَعَةِ الْأَوَّلِ فَهُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ .

الثَّامِنَ عَشَرَ : مُرَاعَاةُ الْإِفْرَادِ . فَإِنَّ الْمُفْرَدَ سَابِقٌ عَلَى الْجَمْعِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : "الْمَالُ والبنون" [سورة الكهف : ٤٦] ، وقوله : "من مال وبنين " [سورة المؤمنون : ٥٥] . وَمِنْهُ تَقْدِيمُ الْوَصْفِ بِالْمُفْرَدِ عَلَى الْوَصْفِ بِالْجُمْلَةِ، فِي قَوْلِهِ : "وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانه " [سورة غافر : ٢٨]، وقوله : "وهذا ذكر مبارك أنزلناه" [سورة الأنبياء : ٥٠] .

التَّاسِعَ عَشَرَ : التَّحْذِيرُ مِنْهُ وَالتَّنْفِيرُ عَنْهُ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى : "الزَّاني لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مشركة" [سورة النور : ٣] ، قَرَنَ الزِّنَى بِالشِّرْكِ وَقَدَّمَهُ . وَقَوْلِهِ : " زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ " [سورة أل عمران : ١٤] قَدَّمَهُنَّ فِي الذِّكْرِ لِأَنَّ الْمِحْنَةَ بِهِنَّ أَعْظَمُ مِنَ الْمِحْنَةِ بِالْأَوْلَادِ وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : " مَا تَرَكْتُ بَعْدِي – فِي النَّاسِ – فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ " [١] .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب النكاح ، باب ما يتقى من شؤم المرأة ٧ / ٨ ، دار طوق النجاة – الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ، وصحيح مسلم : كتاب الرقاق ، باب أكثر أهل الجنة ٤ / ٢٠٩٧ ، ط : دار إحياء التراث العربي – بيروت .

الْعِشْرُونَ : التَّخْوِيفُ مِنْهُ . كقَوْلِهِ تَعَالَى : " فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ " [سورة هود : ١٠٥] .

الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ : التَّعْجِيبُ مِنْ شَأْنِهِ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى : " وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وَكُنَّا فَاعِلِينَ [سورة الأنبياء : ٧٩] " . قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : فإن قلت: لم قدمت الجبال على الطير ؟ قلت : لأنّ تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدلّ على القدرة وأدخل في الإعجاز ، لأنها جماد والطير حيوان ، إلا أنه غير ناطق [١] .

الثَّانِيَ وَالْعِشْرُونَ : كَوْنُهُ أَدَلَّ عَلَى الْقُدْرَةِ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى : " فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أربع " [سورة النور : ٤٥] .

وَالثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ : قَصْدُ التَّرْتِيبِ . كَمَا فِي آيَةِ الْوُضُوءِ فَإِنَّ إِدْخَالَ الْمَسْحِ بَيْنَ الْغَسْلَيْنِ وَقَطْعَ النَّظَرِ عَنِ النَّظِيرِ مَعَ مُرَاعَاةِ ذَلِكَ فِي لِسَانِهِمْ دَلِيلٌ عَلَى قَصْدِ التَّرْتِيبِ . وَكَذَلِكَ الْبَدَاءَةُ فِي الصَّفَا بِالسَّعْيِ وَمِثْلُهُ الْكَفَّارَةُ الْمُرَتَّبَةُ فِي الظِّهَارِ وَالْقَتْلِ .

الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ: خِفَّةُ اللَّفْظِ . كتقديم الإنس على الجن، فالإنس أخف، لمكان النون والسين المهموسة.

الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ : رِعَايَةُ الْفَوَاصِلِ . كقوله تعالى : " وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون " [سورة فصلت : ٣٧] ، بِتَقْدِيمِ "إِيَّاهُ " عَلَى " تَعْبُدُونَ " لِمُشَاكَلَةِ رُءُوسِ الْآيِ ، وكقوله : " فأوجس في نفسه خيفة موسى " [سورة طه : ٦٧] فإنه لو أخر " في نفسه " عن " موسى " فَاتَ تَنَاسُبُ الْفَوَاصِلِ لِأَنَّ قَبْلَهُ : " يُخَيَّلُ إِلَيْهِ من سحرهم أنها تسعى " وبعده ، " إنك أنت الأعلى " . وقوله تعالى : " إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى " [سورة الليل : ١٢ ، ١٣] فسر التقديم والتأخير في هذه الآيات رعاية فواصل الآيات وهو سبب ظاهري يظهر جمال الصنعة

---

[١] تفسير الكشاف ٣ / ١٢٩ ، ط : دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ .

البديعية في مراعة التناسب اللفظي والإيقاع الصوتي للنظم القرآني ، ولكن هناك لطائف دقيقة ونكات خفية تتجاوز الظاهر من الألفاظ والأصوات وتبين عمق المعنى وروعة البيان وهو ما يرموا إليه علماء البلاغة في بحثهم عن دلائل الإعجاز القرآني .

تقول الدكتورة بنت الشاطئ – رحمها الله – في هذا المقام : عدل البيان القرآني فما عما هو مألوف ومتبادر من تقديم الأولى على الآخرة . وليس القصد إلى رعاية الفاصلة ، هو وحده الذي اقتضى تقديم الآخرة هنا على الأولى . وإنما اقتضاه المعنى أولاً، في سياق البشري والوعيد، إذ الآخرة خير وأبقى، وعذابها أكبر وأشد وأخزى ...

وبهذا الملحظ البياني قُدمت الآخرة على الأولى في سياق البشري للمصطفى، عليه الصلاة والسلام ، بآية الضحى : وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى" [سورة الضحى : ٤ ، ٥] كما قُدمت الآخرة على الأولى في سياق الوعيد لفرعون ، بآية النازعات : " فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى " [سورة النازعات آية ٢٤ ، ٢٥] مقتضى الإعجاز أنه ما من فاصلة قرآنية لا يقتضى لفظها في سياقه، دلالة معنوية لا يؤديها لفظ سواه ، قد نتدبره فنهتدي إلى سرِّه البياني . وقد يغيب نا فنْقرُّ بالقصور عن إدراكه .

ولا يُظَن بي أنني أُهوِّن من قيمة التآلف اللفظي والإيقاع الصوتي لهذا النسق الباهر الذي يجتلي فيه فنيَّة البلاغة ، تؤذي المعنى بأرهف لفظ وأروع تعبير وأجمل إيقاع .

فالبلاغة من حيث هي فن القول ، لا تفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه ، ولا تعتد بمعان جليلة تقصر الألفاظ عن التعبير البليغ عنها ، كما لا تعتد بألفاظ جميلة تضيع المعنى أو تجور عليه ليسلم لها زخرف بديعي .

وهذا هو الحد الفاصل بين فنية البلاغة كما تجلوها الفواصل القرآنية بدلالتها المعنوية المرهفة ونسقها الفريد في إيقاعها الباهر ، وبين ما تقدمه الصنعة البديعية من زخرف لفظي يُكرِه الكلماتِ على أن تجئ في غير مواضعها .

فلعل جلال الفواصل القرآنية في نسقها الفريد ، يعفينا من لَدَدِ خصومةٍ بين

أصحاب اللفظ وأصحاب المعنى ، لا يعرفها ذوق العربية المرهف في البيان الأعلى بالكتاب العربي المبين [١] .

النَّوْعُ الثَّانِي : مِمَّا قُدِّمَ النِّيَّةُ بِهِ التَّأْخِيرُ . – أي اللفظ مقدم ومعناه مؤخر– وعبر عنه صاحب الاتقان بما أشكل معناه بحسب الظاهر فلما عرف أنه من باب التقديم والتأخير اتَّضَحَ وَهُوَ جَدِيرٌ أَنْ يُفْرَدَ بِالتَّصْنِيفِ :

١ – فَمِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ الْإِعْرَابُ : كَتَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ عَلَى الْفَاعِلِ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ : " إِنَّمَا يَخْشَى الله من عباده العلماء " – سورة فاطر آية٢٨– وقوله جل ذكره: " لن ينال الله لحومها ولا دماؤها " [سورة الحج آية٣٧] وقوله تعالى: "وإذ ابتلى إبراهيم ربه " [سورة البقرة : ١٢٤] وَكَتَقْدِيمِ الْخَبَرِ عَلَى الْمُبْتَدَأِ فِي قَوْلِهِ : " وَظَنُّوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله " [سورة الحشر : ٢] وَلَوْ قَالَ : " وَظَنُّوا أَنَّ حُصُونَهُمْ مَانِعَتُهُمْ " لَمَا أَشْعَرَ بِزِيَادَةِ وُثُوقِهِمْ بِمَنْعِهَا إِيَّاهُمْ .

٢ – وَمِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى . كَقَوْلِهِ تَعَالَى : "وَإِذْ قَتَلْتُمْ نفسا فادارأتم فيها" [سورة البقرة: ٧٢]، قَالَ الْبَغَوِيُّ : هَذَا أَوَّلُ الْقِصَّةِ وَإِنْ كَانَتْ مُؤَخَّرَةً فِي التِّلَاوَةِ [٢] . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : " أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلهه هواه أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا " [سورة الفرقان : ٤٣] وَأَصْلُ الْكَلَامِ هَوَاهُ إِلَهَهُ كَمَا تَقُولُ اتَّخَذَ الصَّنَمَ مَعْبُودًا لَكِنْ قُدِّمَ الْمَفْعُولُ الثَّانِي عَلَى الْأَوَّلِ لِلْعِنَايَةِ .

٣ – وَمِنْ أَنْوَاعِهِ أَنْ يُقَدَّمَ اللَّفْظُ فِي الْآيَةِ وَيَتَأَخَّرَ فِيهَا لِقَصْدِ أَنْ يَقَعَ الْبَدَاءَةُ وَالْخَتْمُ بِهِ لِلِاعْتِنَاءِ بِشَأْنِهِ وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : "يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فأما الذين اسودت وجوههم" [سورة آل عمران : ١٠٦] . وَقَوْلِهِ : "وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا" إِلَى قَوْلِهِ: "قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ من اللهو ومن التجارة وَاللَّهُ

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع ابن الأزرق . د / عائشة عبد الرحمن ص ٢٧٨ ، ط : دار المعارف – الطبعة الثالثة .

(٢) معالم التنزيل للبغوي ١ / ١٣٠ ، ط : دار إحياء التراث العربي – بيروت .

خَيْرُ الرَّازِقِينَ" [سورة الجمعة : ١١] .

٤ – وَمِنْهَا أَنْ يَقَعَ التَّقْدِيمُ فِي مَوْضِعٍ وَالتَّأْخِيرُ فِي آخَرَ ، وَاللَّفْظُ وَاحِدٌ ، وَالْقِصَّةُ وَاحِدَةٌ ، لِلتَّفَنُّنِ فِي الْفَصَاحَةِ وَإِخْرَاجِ الْكَلَامِ عَلَى عِدَّةِ أَسَالِيبَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : "وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ" [سورة البقرة : ٥٨] وقوله : "وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا" [سورة الأعراف : ١٦١] (١) .

ويمكن تقسيم التقديم والتأخير باعتبار وقوعه وعدمه إلى نوعين :

الأول : ما اتفق المفسرون واللغويون على وقوع ولم يسع أحد إنكاره وهو ما قام الدليل على وقوعه ولم يخل بأصل المعنى وأمن معه اللبس ومثال ذلك ما جاء من تقديم المفعول على الفاعل في قوله تعالى : "وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ " [سورة البقرة : ١٢٤] وقوله جل ذكره : " لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا " [سورة الحج آية ٣٧] وقوله تعالى : إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" [سورة فاطر آية ٢٨] وتقديم المبتدأ على الخبر كقوله تعالى : "قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ" [سورة مريم آية٤٦] فإنه إنما قدم خبر المبتدأ عليه في قوله : " أَرَاغِبٌ أَنْتَ " ، ولم يقل : أأنت راغب ؛ لأنه كان أهم عندهم ، وهو به شديد العناية . وفي ذلك ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته ، وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها وهذا بخلاف ما لو قال: أأنت راغب عن آلهتي؟ (٢).

وقوله جل ذكره : "وَظَنُّوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله" [سورة الحشر آية ٢] فإنه إنما قال ذلك ، ولم يقل : وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم ؛ لأن في تقديم الخبر

---

(١) انظر : البرهان في علوم القرآن جـ ٣ ص ٢٣٣ إلى ص ٢٨٧ ، ط : دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٧م ، تحقيق : محمد أبي الفضل ابراهيم ، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ٣ ص ٣٨ إلى ص ٤٧ ، ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤م ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم ، والمثل السائر لابن الأثير جـ ٢ من ص ٣٥ إلى ص ٤٥ ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ط : المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت سنة ١٤٢٠ هـ .

(٢) المثل السائر . لابن الأثير ٢ / ٣٨ .

الذي هو " مانعتهم " على المبتدأ الذي هو " حصونهم " دليلا على فرط اعتقادهم في حصانتها ، وزيادة وثوقهم بمنعها إياهم . وفي تصويب ضمير هم اسما ؛ لأن وإسناد الجملة إليه دليل على تقريرهم في أنفسهم أنهم في عزة ، وامتناع لا يبالي معها بقصد قاصد ولا تعرض متعرض ، وليس شيء من ذلك في قولك : وظنوا أن حصونهم مانعتهم من الله [١] .

فهذا التقديم والتأخير تشهد له الصناعة النحوية وأمن معه اللبس ولا يسع أحد إنكاره ، ويندرج تحت هذا النوع ما جاء في باب المتشابه اللفظي في من تقديم بعض الكلمات في موضع وتأخرها في موضع آخر

مثال تقديم التلاوة وتعليم الكتاب على التزكية في قوله تعالى : (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [سورة البقرة آية١٢٩] . وتقديم التزكية على تعليم الكتاب والحكمة في الجمعة (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [الجمعة ١ ، ٢] فلماذا أوثر في كل موضع ما هو عليه من النظم ؟

الجواب : بالتأمل الدقيق يتضح لنا سر تقديم التلاوة وتعليم الكتاب والحكمة على التزكية في سورة البقرة ، وهو التناسب القوي بين معنى التلاوة وتعليم الكتاب والحكمة فبينهما اتصال وثيق كاتصال السبب بالمسبب والعلة بالحكم فبالتلاوة يحصل تعليم الكتاب والحكمة.

وأخرت التزكية في هذا الموضع مراعة لتناسب الفاصلة إنك أنت العزيز الحكيم فهما وصفان موجبان للعظمة والحكمة في القول .

---

(١) السابق نفس الصفحة .

أما سر تقديم التزكية في سورة الجمعة لمناسبة تنزيه الملك القدوس العزيز الحكيم ، فبين التزكية والقداسة والترابط صلة .

وتأخير تعليم الكتاب والحكمة هنا لمناسبة الفاصلة " وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين " فجمع بين الضدين لمزيد إبراز النعمة عليهم في انقاذهم من الضلالة والجهل إلى العلم والحكمة .

وهناك لطيفة أخرى في الاختلاف بين المقامين : أن مقام سورة البقرة دعاء أبي الأنبياء عليهم السلام لأبنائه فكان الترتيب الطبيعي أن يبدأ الدعاء بتحصيل الهداية لهم عن طريق رسول يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فإذا حصل لهم ذلك حصلت لهم التزكية فقدم السبب على المسبب. أما مقام سورة الجمعة مقام تقديس وتمجيد لله رب العالمين ، فناسب تقديم التزكية لأنها المقصودة وأخر تعليم الكتاب والحكمة ليظهر فضل الله تعالى على عباده المؤمنين بالجمع بين النقيضين تعليم الكتاب والحكمة ، والضلال المبين والله أعلم .

مثال آخر : قدم رزق المخاطبين على رزق أولادهم المدلول عليه بعطف ضمير هم عليه في سورة الأنعام فقال تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [أية ١٥١] . وفي الإسراء قدم رزق الأولاد على رزق المخاطبين : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [آية ٣١] . فما سر التقديم والتأخير في هذين الموضعين ؟

الجواب : التقديم والتأخير بين الموضعين لمناسبة اختلاف حال المخاطبين .

ففي سورة الأنعام قدم رزق المخاطبين على رزق أولادهم لأنهم فقراء ، فحصول الرزق لهم هو الأهم عندهم ثم ثنى عليه برزق أولادهم بالتبعية ، والدليل على حالهم النهى عن قتل أولادهم بسبب شدة الفقر " ولا تقتلوا أولادكم من إملاق " .

أما في سورة الإسراء الخطاب مع غير فقراء لكنهم يخشون وقوع الفقر في المستقبل فتجوع أولادهم . فرزق أولادهم – لأنه مظنة القلة التوقعة – أهم عندهم من رزقهم لأنهم حاصلون عليه ، فقدم رزق أولادهم على رزقهم لأنه أهم كما بيَّنا . والدليل على حالهم هذا التعبير بقوله : " خشية إملاق " أي فقر متوقع .

النوع الثاني : ما تنازع فيه المفسرون واللغويون من حيث وقوعه وعدمه إذا لم يقم دليل على التقديم والتأخير أو قرينة واضحة ولم يأمن معه اللبس

مثاله : توهم البعض وقوع التقديم والتأخير في قوله تعالى : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [سورة الفاتحة آية ٥] فظنوا أن إياك نعبد مقدم في اللفظ مؤخر في المعنى " .

قال الإمام الطبري – رحمه الله – : وقد ظنّ بعض أهل الغفلة أنّ ذلك من المقدّم الذي معناه التأخيرُ ، كما قال امرؤ القيس :

ولَــوْأنّ مَــا أسْــعَى لأدْنَــى مَعِيشَــةٍ كَفَــانِي ولم أطلُــبْ قليــلٌ مــن المــالِ (١)

يريد بذلك : كفاني قليلٌ من المال ولم أطلب كثيرًا . وذلك – من معنى التقديم والتأخير ، ومن مشابهة بيت امرئ القيس – بمعْزِل . من أجل أنّه قد يكفيه القليلُ من المال ويطلُب الكثيرَ ، فليس وُجودُ ما يكفيه منه بموجبٍ له تركَ طلب الكثير ، فيكونَ نظيرَ العبادة التي بوجُودها وجود المعونة عليها ، وبوجود المعونة عليها وُجُودها ، فيكونَ ذكرُ أحدِهما دالا على الآخر ، فيعتدلَ في صحة الكلام تقديمُ ما قُدِّم منهما قبلَ صاحبه ، أن يكونَ موضوعًا في درجته ومرتَّبًا في مرتَبتِه (٢) .

وسيأتي تفصيل الخلاف في وقوع هذا النوع وعدمه في المبحث التالي إن شاء الله تعالى .

---

(١) ديوان امرئ القيس ص ٧١ .

(٢) جامع البيان للطبري ١ / ١٦٤ ، تحقيق : أحمد شاكر ، ط : مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .

المبحث الثاني
أسلوب التقديم والتأخير بين المؤيدين والمعارضين

تباينت أقوال المفسرين واللغويين في جواز التقديم والتأخير وعدمه في كتاب الله تعالى على ثلاثة مذاهب :

١ – مذهب القائلين بجواز أسلوب التقديم والتأخير لوقوعه في آيات الذكر الحكيم : وإلى هذا ذهب جماعة من سلف الأمة الذين كانت لهم الإمامة فى التفسير وعلى رأسهم حبر الأمة و ترجمان القرآن ابن عباس – رضى الله عنهما – ومجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم إلى القول بجواز التقديم والتأخير. وإليك بعض مروياتهم التي تدل على ذلك:

فقد أخرج الإمام الطبري بسنده عن ابن عباس وقتادة في قوله : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قَيِّمًا ﴾ [سورة الكهف آية ١ ، ٢] يقول : أنزل الكتاب عدلا قيما، ولم يجعل له عوجا ، فأخبر ابن عباس بقوله هذا مع بيانه معنى القيم أن القيم مؤخر بعد قوله ، ولم يجعل له عوجا ، ومعناه التقديم بمعنى : أنزل الكتاب على عبده قيما ... وعن قتادة ، في قوله : (وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قَيِّمًا) قال : أنزل الله الكتاب قيما ، ولم يجعل له عوج [١] .

وفي تفسير قوله تعالى : " وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [سورة الروم آية ٥٦] .

قال الطبري – رحمه الله– : كان قَتادة يقول: هذا من المقدّم الذي معناه التأخير

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد، قال : ثنا سعيد، عن قَتادة قوله : (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ) قال : هذا من مقاديم الكلام. وتأويلها : وقال الذين أوتوا الإيمان والعلم : لقد لبثتم في كتاب الله .

---

(١) جامع البيان ١٧ / ٥٩١ .

وذُكر عن ابن جُرَيج أنه كان يقول : معنى ذلك : وقال الذين أوتوا العلم بكتاب الله ، والإيمان بالله وكتابه [١] .

وروى صاحب البحر المحيط في تفسير قوله تعالى : " لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ " [سورة الرعد آية ١١] عن مجاهد والنخعي وابن جريج القول بالتقديم والتأخير فقال : وَقَالَ الْفَرَّاءُ وَجَمَاعَةٌ : فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ أَيْ : لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ . وَرُوِيَ هَذَا عَنْ مُجَاهِدٍ ، وَالنَّخَعِيُّ ، وَابْنُ جُرَيْجٍ، فَيَكُونُ مِنْ أَمْرِ اللَّهُ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ لِأَنَّهُ صِفَةٌ لِمَرْفُوعٍ ، وَيَتَعَلَّقُ إِذْ ذَاكَ بِمَحْذُوفٍ أَيْ : كَائِنَةٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى [٢] .

– وتبعهم في ذلك كثير من أئمة اللغة والنحو والبلاغة وعلى رأسهم سيبويه والأخفش والكسائي والفراء وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم . وهذه جملة من أقوالهم تدل على ذلك :

ذهب إمام النحاة البصريين سيبويه – رحمه الله – إلى أن أسلوب التقديم والتأخير في الكلام عربي جيد وورد بكثرة في اللغة فقال في كتابه : والتقديمُ ههنا والتأخير " فيما يكون ظرفاً أو يكون اسماً ، في العناية والاهتمامِ ، مثلُه فيما ذكرتُ لك في باب الفاعل والمفعول . وجميعُ ما ذكرت لك من التقديم والتأخير " والإلغاء" [٣] " والاستقرار عربي جيّد كثير [٤] .

---

(١) السابق ٢٠ / ١١٩ .

(٢) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٦ / ٣٦٢ ، تحقيق : صدقي محمد جميل ، ط : دار الفكر – بيروت سنة ١٤٢٠ هـ .

(٣) الإلغاء : هو أن تأتي الكلمة لا موضع لها من الإعراب إنْ كانت مما تعرب ، وأنها متى أسقطت من الكلام لم يختل الكلام ، وإنما يأتي ما يلغى من الكلام تأكيدًا أو تبيينًا الأصول في النحو لابن السراج ٢ / ٢٥٧ ، ط : مؤسسة الرسالة – بيروت .

(٤) الكتاب لسيبويه ١ / ٥٦ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون . الناشر : مكتبة الخانجي – القاهرة – الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

وقال في موضع آخر :ما يكون فيه الاسمُ مبنياً على الفعل قُدِّمَ أو أُخِّرَ وما يكون فيه الفعلُ مبنيّا على الاسم فإذا بنيتَ الاسمَ عليه قلتَ : ضربتُ زيدا ، وهو الحدُّ ، لأنّك تريد أن تُعْمِلَه وتَحملَ عليه الاسمَ ، كما كان الحدُّ ضَربَ زيدٌ عمراً ، حيث كان زيدٌ أوّلَ ما تشغَل به الفعل . وكذلك هذا إذا كان يَعْمَلُ فيه . وإن قدمتَ الاسمَ فهو عربيٌّ جيّد كما كان ذلك عربيّا جيّدا ، وذلك قولك : زيداً ضربتُ ، والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير سَواءٌ ، مثلُه في ضرب زيد عمراً وضرب عمراً وزيد . فإذا بنيتَ الفعلَ على الاسم قلتَ : زيدٌ ضربته ، فلزمته الهاء [١] .

وذكر الغرض من وقوع التقديم في كلامهم فقَالَ سِيبَوَيْهِ : كَأَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ الَّذِي شَأْنُهُ أَهَمُّ لَهُمْ وَهُمْ بِبَيَانِهِ أَعْنَى وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا يُهِمَّانِهِمْ وَيَعْنِيَانِهِمْ . انْتَهَى [٢] .

واقتفى تلميذه الأخفش – رحمه الله – أثره في هذا الرأي فقال : " ومثل هذا في كلام العرب وفي الشعر كثير في التقديم والتأخير . يكتب الرجل : " أَمّا بَعْدُ حَفِظَكَ اللهُ وَعافاكَ فإنّي كَتَبْتُ إِلَيْكَ " فقوله " فَإِنِّي " محمول على " أَمَّا بَعْدُ " وانما هو " أَمَّا بَعْدُ فإنّي " وبينهما كما ترى كلام . قال الشاعر :

خَيْرٌ مِنَ القَوْمِ العُصاةِ أَمِيرَهُم يا قومُ فاستَحْيُوا النِسَاءُ الجُلَّسُ [٣]

والمعنى : خيرٌ مِنَ القَوْمِ العصاةِ أميرَهُم النِّساءُ الجُلَّسُ يا قومُ فاسْتَحْيُوا [٤] . ونحاة

---

(١) السابق ١ / ٨١ .

(٢) انظر : البحر المحيط ٤ / ٢٥١ ، وإعراب القرآن للنحاس ١ / ٨٠ ، ط : منشورات محمد علي بيضون – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ .

(٣) البيت لم أعثر عليه في الدواوين وكتب اللغة والأدب ، وقد ذكره الأخفش في معاني القرآن ، وابن الجوزي في زاد المسير ١ / ١٠١ ، ط : المكتب الإسلامي – بيروت – الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٤ هجرية .

(٤) معاني القرآن للأخفش ١ / ٣٢٨ وما بعدها ، تحقيق الدكتورة : هدى محمود قراعة ، ط : مكتبة الخانجي – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م .

الكوفة رحمهم الله لم يحيدوا عن هذا المنحى فذكر البغوي عن إمامهم الكسائي في تفسير قوله تعالى : لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا [سورة الكهف آية ٣٨] " قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَيَعْقُوبُ لَكِنَّا بِالْأَلِفِ فِي الْوَصْلِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِلَا أَلِفٍ وَاتَّفَقُوا عَلَى إِثْبَاتِ الْأَلِفِ فِي الْوَقْفِ، وَأَصْلُهُ لَكِنَّ أَنَا، فَحُذِفَتِ الْهَمْزَةُ طَلَبًا لِلتَّخْفِيفِ لِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهَا ثُمَّ أُدْغِمَتْ إِحْدَى النُّونَيْنِ فِي الْأُخْرَى .

قَالَ الْكِسَائِيُّ رحمه الله– : فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ مَجَازُهُ لَكِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي، وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً [١] . وعنه أيضا في تفسير قوله تعالى : "وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا " [سورة الأنبياء آية٣] قال: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، أَرَادَ: الذين ظَلَمُوا أَسَرُّوا النَّجْوَى [٢] .

وأورد تلميذه الفراء – رحمه الله– في كتابه الماتع معاني القرآن أمثلة كثيرة تدل على وقوعه بكثرة فذكر منها : " قوله :"مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُما " [سورة البقرة آية ٢٨٢] بفتح أن ، وتكسر . فمن كسرها نوى بها الابتداء فجعلها منقطعة مما قبلها. ومن فتحها فهو أيضا على سبيل الجزاء إلا أنه نوى أن يكون فِيهِ تقديم وتأخير. فصار الجزاء وجوابه كالكلمة الواحدة . ومعناه – والله أعلم – استشهدوا امرأتين مكان الرجل كيما تذكر الذاكرة الناسية إن نسيت فلما تقدم الجزاء اتصل بما قبله، وصار جوابه مردودا عليه . ومثله فِي الكلام قولك : (إنه ليعجبني أن يسأل السائل فيعطي) فالذي يعجبك الإعطاء إن يسأل، ولا يعجبك المسألة ولا الافتقار .. فهذا دليل على التقديم والتأخير [٣] .

وجاء من بعدهم الزجاج – رحمه الله– فسار على دربهم وحسن وقوعه وورده

---

(١) معالم التنزيل للبغوي ٣ / ١٩٣ ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، ط : دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ .

(٢) السابق ٣ / ٢٨٣ .

(٣) معاني القرآن للفراء ١ / ١٨٤ ، تحقيق : أحمد يوسف النجاتي وآخرون ، ط : دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر – الطبعة الأولى .

بكثرة في الكلام فنراه عند إعرابه لقوله تعالى : "اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ" [سورة النمل آية ٢٨] ينص على ذلك فيقول : قال بعضهم : معناه اذهب بِكِتَابِي هذا فألقه إليهم فانظر مَاذَا يَرْجِعونَ ثم تول عنهم ، وقال هذا لأنَّ رجوعَه من عندهم والتولي عنهم بعد أن ينظر ما الجواب . وهذا حسن ، والتقديم والتأخير كثير في الكلام ، وقالوا معنى (ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ) تول عنهم مستَتِراً من حَيْث لا يَرَوْنَكَ ، فانظر ماذا يردونَ مِنَ الجواب [١] .

وجعله أبو البقاء العكبري – رحمه الله – من باب التوسع والتفنن في الكلام فقال : ومن الاستدلالِ أنَّ التَّقديمَ والتأخيرَ في الكلامِ جائزٌ للتوسع في الكلام ، ولا يمنع ذلك من وقوع الشيءِ في غيرِ موضعه ، ألا تَرى أنَّهم قدَّموا المفعولَ على الفاعلِ مع أنَّ رُتبتهُ متأخرةٌ [٢] .

وأفرد له الإمام عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله – في كتابه دلائل الإعجاز مبحثا عظيم النفع بالغ الأهمية فيقول : " هو بابٌ كثيرُ الفوائد ، جَمُّ المَحاسن ، واسعُ التصرُّف ، بعيدُ الغاية ، لا يَزالُ يَفْتَرُّ لك عن بديعةٍ ، ويُفْضي بكَ إلى لَطيفة ، ولا تَزال تَرى شِعراً يروقُك مسْمَعُه ، ويَلْطُف لديك موقعُه ، ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أَنْ راقكَ ولطفَ عندك ، أن قُدِّم فيه شيءٌ ، وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان [٣] .

وذهب إلى هذا القول الحارث المحاسبي [٤] – رحمه الله – فقال : وَمِمَّا كلم الله

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤ / ١١٧ ، تحقيق : عبد الجليل عبده شلبي ، ط : عالم الكتب – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

(٢) التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين لأبي البقاء العكبري ١ / ٢٤٧ تحقيق د : عبد الرحمن العثيمين ، ط : دار الغرب الإسلامي – الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م .

(٣) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ١٠٦ ، تحقيق : محمود محمد شاكر، ط : مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة – الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م .

(٤) الْحَارِث بن أَسد أَبُو عبد الله المحاسبي شيخ الْجُنَيْد ، وَأحد الْعلمَاء الزهاد . وَسمي المحاسبي – فِيمَا

جلّ ذكره بِهِ عباده مقدم ومؤخر لِأَن الْعَرَب قد كَانَت تفعل ذَلِك فِي تراجعها بَينهَا ومخاطبتها قبل أَن يتزل الْكتاب على نبيه عَلَيْهِ السَّلَام فَمن ذَلِك قَوْله عز وَجل "فَكيف كَانَ عَذَابي وَنذر" [سورة القمر آية ١٦] فَبدَأَ بِالْعَذَابِ قبل النّذر وَكَانَ قبل الْعَذَاب لِأَن الله جلّ اسْمه يَقُول "وَمَا أهلكنا من قَرْيَة إِلَّا لَهَا منذرون ذكرى" [سورة الشعراء آية ٢٠٨] وَقَالَ فِي عِقَاب الْأُمَم "فَانْظُر كَيفَ كَانَ عَاقِبَة الْمُنْذرين" [سورة الصافات٧٣] فَأخْبر أَنهم أنذروا فَلَمَّا كذبُوا كَانَ آخر أَمرهم الْعَذَاب وَقَالَ تَعَالَى "فسَاء صباح الْمُنْذرين" [الصافات آية١٧٧] غير أَن الْعَذَاب صبحهمْ بِمَا نقمهم إِذْ أنذروا فَلم يُؤمنُوا وَإِن كَانَت قد قدم فِي التَّنْزِيل الْعَذَاب قبل النّذر فَإِنَّهُ بَدَأَ فَأخْبر أَنه أَنْذرهُمْ قبل أَن يعذبهم ثمَّ قَالَ فِي عقب ذَلِك "فَكيف كَانَ عَذَابي وَنذر" فَقَالَ :"كذبت قوم لوط بِالنذرِ" "كذبت ثَمُود بالنذر" [القمر آية٢٣] " وَقَالَ "وَلَقَد جَاءَ آل فِرْعَوْن النّذر كذبُوا بِآيَاتِنَا كلهَا فأخذناهم أَخذ عَزِيز مقتدر" [القمر : ٤١] وَقَالَ : " فَكيف كَانَ عَذَابي وَنذر " وَقَالَ عز وَجل : " وَمَا كُنَّا معذبين حَتَّى نبعث رَسُولا " [الإسراء آية ١٥] [١] .

وقال الزركشي – رحمه الله – : هُوَ أَحَدُ أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ فَإِنَّهُمْ أَتَوْا بِهِ دَلَالَةً عَلَى تَمَكُّنِهِمْ فِي الْفَصَاحَةِ وَمَلَكَتِهِمْ فِي الْكَلَامِ وَانْقِيَادِهِ لَهُمْ وَلَهُ فِي الْقُلُوبِ أَحْسَنُ مَوْقِعٍ

قرأته بِخَط أبي سعد السَّمْعَانِيّ – لأنه كَانَ يُحَاسب نَفسه . قَالَ : وَقيل : لِأَنَّهُ كَانَت لَهُ حَصى يعدها ويحسبها حَالَة الذّكر . عده الْأُسْتَاذ أَبُو مَنْصُور التَّمِيمِي فِي الطَّبَقَة الاولى من الشَّافِعِيَّة فِيمَن صحب الشَّافِعِي ، وَقَالَ : إِمَام الْمُسلمين فِي الْفِقْه ، وَالْأُصُول ، والتصوف ، والْحَدِيث ، وَالْكَلَام ، وَكتبه فِي هَذِه الْعُلُوم أصُول من يصنف فِيهَا . مَاتَ سنة ثَلَاث وَأَرْبَعين ومئتين . طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح ١ / ٤٤١ ، تحقيق : محيي الدين علي نجيب ، ط : دار البشائر الإسلامية – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٢ م .

(١) انظر : فهم القرآن ومعانيه للحارث بن أسد المحاسبي ص ٤٧٦ وما بعدها ، تحقيق : حسين القوتلي ، ط : دار الكندي – دار الفكر – بيروت – الطبعة الثانية ١٣٩٨ .

وَأَعْذَبُ مَذَاقٍ [١] .

٢ – مذهب المعارضين لأسلوب التقديم والتأخير : ويتزعم هذا المذهب أبو حيان الأندلسي وتلميذه السمين الحلبي :

خالف العلامة أبو حيان الأندلسي – رحمه الله– مذهب السابقين في جواز أسلوب التقديم والتأخير في الكلام الفصيح ، فزعم أنه من القبائح والضرائر الشعرية التي لا يصار إليها في كلام البلغاء وينبغي أن يتره عنه كلام العليم الخبير وإليك بعض ما ذكره في تقرير مذهبه فقال : " وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ : التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ حَسَنٌ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ ، فِي الْجُمَلِ، وَفِي الْكَلِمَاتِ ، وَفِي كَلَامِ الْعَرَبِ . وَأَوْرَدَ مِنْ ذَلِكَ جُمَلًا ، مِنْ ذَلِكَ: قِصَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي إِهْلَاكِ قَوْمِهِ ، وَقَوْلُهُ : وَقَالَ ارْكَبُوا فِيها ، وَفِي حُكْمِ مَنْ مَاتَ عَنْهَا زَوْجُهَا بِالتَّرَبُّصِ بِالْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ وَعَشْرٍ ، وَبِمَتَاعٍ إِلَى الْحَوْلِ ، إِذِ النَّاسِخُ مُقَدَّمٌ ، وَالْمَنْسُوخُ مُتَأَخِّرٌ . وَذَكَرَ مِنْ تَقْدِيمِ الْكَلِمَاتِ فِي الْقُرْآنِ وَالشِّعْرِ عَلَى زَعْمِهِ كَثِيرًا ، وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ ، ذَكَرَ أَصْحَابُنَا أَنَّهُ مِنَ الضَّرَائِرِ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُنَزَّهَ الْقُرْآنُ عَنْهُ [٢] .

وقال في موضع آخر : قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : فِي هَذِهِ الْآيَاتِ نَوْعٌ مِنَ الْبَدِيعِ ، وَهُوَ التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ ، وَهُوَ مِنْ ضُرُوبِ الْبَيَانِ فِي النَّثْرِ وَالنَّظْمِ دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةِ الْمَلَكَةِ فِي ضُرُوبٍ مِنَ الْكَلَامِ ، وَذَلِكَ قوله : وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ " [سورة البقرة آية ٢٠٣] مُتَقَدِّمٌ عَلَى قَوْلِهِ : " فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ " لِأَنَّ قَوْلَهُ : " وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ " مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ ، قَوْلُهُ : " فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ " ، وَقَوْلَهُ : " فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ " مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : " وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ " وَقَوْلَهُ : و" مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَ " عْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ " وَعَلَى قَوْلِهِ : " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ

---

(١) البرهان في علوم القرآن ص ٣ / ٢٣٣ ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم ، ط : دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركائه – الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م .

(٢) البحر المحيط ١ / ٤١٨ .

يَشْرِي " فَيَصِيرُ الْكَلَامُ مَعْطُوفًا عَلَى الذِّكْرِ لِأَنَّهُ مُنَاسِبٌ لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْمَعْنَى، وَيَصِيرُ التَّقْسِيمُ مَعْطُوفًا بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، لِأَنَّ التَّقْسِيمَ الْأَوَّلَ فِي مَعْنَى الثَّانِي ، فَيَتَّحِدُ الْمَعْنَى وَيَتَّسِقُ اللَّفْظُ ، ثُمَّ قَالَ : وَمِثْلُ هَذَا ، فَذَكَرَ قِصَّةَ الْبَقَرَةِ ، وَقَتْلِ النَّفْسِ ، وَقِصَّةَ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا ، فِي الْآيَتَيْنِ ، قَالَ : وَمِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ ، يَعْنِي : التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ ، وَلَا يُذْهَبُ إِلَى مَا ذَكَرَهُ ، وَلَا تَقْدِيمَ وَلَا تَأْخِيرَ فِي الْقُرْآنِ ، لِأَنَّ التَّقْدِيمَ وَالتَّأْخِيرَ عِنْدَنَا مِنْ بَابِ الضَّرُورَاتِ، وَتَنَزَّهَ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُ [١] .

وقال في موضع آخر : فَدَعْوَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ الْمُخْتَصِّ بِضَرُورَةِ الْأَشْعَارِ ، وَبِنَظْمِ ذَوِي الِانْحِصَارِ ، مُنَزَّهٌ عَنْهَا كَلَامُ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [٢] .

وقال أيضا : وَكَثِيرًا مَا ذَكَرَ هَذَا الرَّجُلُ التَّقْدِيمَ وَالتَّأْخِيرَ فِي الْقُرْآنِ ، وَالْعَجَبُ مِنْهُ أَنَّهُ يَجْعَلُهُ مِنْ عِلْمِ الْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ عِنْدَنَا إِلَّا فِي ضَرُورَةِ الشِّعْرِ ، وَهُوَ مِنْ أَقْبَحِ الضَّرَائِرِ ، فَيَنْبَغِي بَلْ يَجِبُ أَنْ يُنَزَّهَ الْقُرْآنُ عَنْهُ . وَرُدَّ ذَلِكَ بِادِّعَاءِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِيمَا ظَاهِرُهُ خِلَافُ ذَلِكَ ، وَلَا يُصَارُ إِلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ إِلَّا لِمَعْنًى يَقْتَضِي ذَلِكَ ، أَوْ بِتَوْقِيفٍ ، أَوْ فِيمَا لَا يُمْكِنُ فِيهِ إِلَّا ذَلِكَ انْتَهَى هَذَا الْقَوْلُ وَرَدُّهُ [٣] .

وتبعه صاحب الدر المصون في هذا المنحى فقال في تفسير قوله تعالى : " وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ" [سورة البقرة: ١٣٠] قال الحسين بن الفضل [٤] : « في الكلامِ تقديمٌ

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٣٣٧ .

(٢) البحر المحيط ٣ / ٣٥٢ .

(٣) البحر المحيط ٤ / ٤١٦ .

(٤) الحُسَيْنُ بنُ الفَضْلِ بنِ عُمَيْرٍ أَبُو عَلِيٍّ البَجَلِيُّ * العَلاَّمَة ، المفسِّر ، الإِمَام ، اللُّغَوِيّ، المُحَدِّث ، أَبُو عَلِيٍّ البَجَلِيّ الكُوْفِيّ ، ثُمَّ النَّيْسَابُوْرِيّ ، عَالِم عصره . وُلِدَ قَبْل الثَّمَانِيْنَ وَمئَة . وَدُفِن فِي مَقْبَرَة الحُسَيْن بن مُعَاذٍ ، فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِيْنَ وَمائَتَيْنِ ، وَهُوَ ابْن مئَة وَأَربع سِنِيْنَ ١٣ / ٤١٤ ، ط : مؤسسة الرسالة – الثالثة سنة ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .

وتأخيرٌ، مجازُه : " ولقد اصطفيناه في الدنيا وفي الآخرة " وهذا ينبغي ألاَّ يجوزُ مثلُه في القرآنِ لنُبُوِّ السَّمْعِ عنه [١] .

وقال السمين – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى : " قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ " [سورة يوسف آية٧٧] : وقرأ عبد اللَّه وابن أبي عبلة : « فَأَسَرَّه » بالتذكير . قال الزمخشري : « يريد القول أو الكلام ». وقال أبو البقاء : « المضمر يعود إلى نِسْبتهم إياه إلى السَّرقة، وقد دَلَّ عليه الكلامُ، وقيل : في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ تقديرهُ : قال في نفسه: أنتم شرٌّ مكاناً ، وأَسَرَّها – أيْ هذه الكلمةَ – . قلت : ومِثْلُ هذا يَنْبغي أن لا يُقال : فإنَّ القرآنَ يُنَزَّهُ عنه [٢] .

وقال في تفسير قوله تعالى : " لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ " [سورة الرعد آية ١١] وليس في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ كما زعم الفراءُ وغيره ، وأن الأصلَ : له مُعَقِّبات مِنْ أَمْرِ الله يحفظونه مِنْ بين يديه ، لأنَّ الأصلَ عدمُه مع الاستغناءِ عنه [٣] .

٣ – مذهب القائلين بالجمع بين القولين وأن الأصل في الكلام تقديم ما حقه التقديم ، وتأخير ما حقه التأخير ، ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بحجة يجب التسليم لها . ويمثل هذا الاتجاه كثير من المفسرين كالطبري والرازي وابن جزي الكلبي وأبي السعود والألوسي وغيرهم .

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٢ / ١٢٢ ، تحقيق : الدكتور أحمد محمد الخراط ، ط : دار القلم – دمشق .

(٢) الدر المصون ٦ / ٥٣٦ .

(٣) الدر المصون ٧ / ٣٠ .

قال الإمام الطبري – رحمه الله – : " ولا وجه لتقديم شيء من كتاب الله عن موضعه أو تأخيره عن مكانه إلا بحجّة واضحةٍ [١] .

وقال في موضع آخر : " وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخَّر الذي معناه التقديم ، وأن معنى الكلام : والذي أخرج المرعى أحوى : أي أخضر إلى السواد، فجعله غثاء بعد ذلك ، ويعتلّ لقوله ذلك بقول ذي الرُّمة :

حَـــوَّاءُ قَرْحـــاءُ أشْـــراطِيَّةٌ وَكَفَـــتْ فِيهَـــا الـــذِّهَابُ وَحَفَّتْهَـــا الْبَـــرَاعِيمُ [٢]

وهذا القول وإن كان غير مدفوع أن يكون ما اشتدّت خضرته من النبات ، قد تسميه العرب أسود ، غير صواب عندي بخلافه تأويل أهل التأويل في أن الحرف إنما يحتال لمعناه المخرج بالتقديم والتأخير إذا لم يكن له وجه مفهوم إلا بتقديمه عن موضعه، أو تأخيره ، فأما وله في موضعه وجه صحيح فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير [٣]. فالطبري – رحمه الله – لم ينكر القول بالتقديم والتأخير بل قيده بالحجة الواضحة وتوجيه سائغ وإلا قدم القول بالترتيب ورعاية أصل الكلام عليه.

وعلى هذا الدرب صار الإمام الرازي – رحمه الله– فقال في تفسير قوله تعالى : " قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ " [آية٢٦٠سورة البقرة] فَإِنْ قِيلَ : لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ ، وَالتَّقْدِيرُ : فَخُذْ إِلَيْكَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ . قُلْنَا : الْتِزَامُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ مُلْجِئٍ إِلَى الْتِزَامِهِ خِلَافُ الظَّاهِرِ [٤] .

وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا أَمْكَنَ حَمْلُ الْكَلَامِ عَلَى ظَاهِرِهِ كَانَ الْمَصِيرُ إِلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ غَيْرَ جَائِزٍ [٥] .

---

(١) جامع البيان ١٦ / ٢٦٦ .

(٢) ديوان ذي الرمة ٩٣ .

(٣) جامع البيان ٢٤ / ٣٧٠ .

(٤) التفسير الكبير ٧ / ٣٨ ، ط : دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثالثة ١٤٢٠ هـ .

(٥) السابق ١٨ / ٥٢٥ .

وقال ابن جزي – رحمه الله – في مقدمة تفسيره : الثاني عشر – من أوجه الترجيح بين الأقوال التفسيرية – حمل الكلام على ترتيبه إلّا أن يدل دليل على التقديم والتأخير [١] .

قال العلامة أبو السعود : – رحمه الله – : ولا ضيرَ في التقديم والتأخير إذا دل على الترتيب دليل [٢] .

وقال الإمام الألوسي في تفسير قوله تعالى : " لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا " – سورة المائدة آية ٨٢ – : ولا ضير في التقديم والتأخير إذا دل على الترتيب دليل وهو هنا واضح إذ المقصود بيان كون الطائفتين أشد الناس عداوة للمؤمنين لا كون أشدهم عداوة لهم الطائفتين المذكورتين فليفهم [٣] .

وقال الألوسي – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى : " وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ " [سورة الحشر آية ٩] وقيل : الكلام على التقديم والتأخير ، والتقدير تبوؤوا الدار من قبلهم والإيمان فيفيد سبقهم إياهم في تبويء الدار فقط وهو خلاف الظاهر على أن مثله لا يقبل ما لم يتضمن نكتة سرية وهي غير ظاهرة هاهنا [٤] .

واختار المبرد جوازه عند أمن اللبس فقال : وَإِنَّمَا يجوز التَّقْدِيم وَالتَّأْخِير فِيمَا لَا يشكل تَقول : ضرب زيد عمرا ، وَضرب زيدا عَمْرو ؛ لِأَن الْإِعْرَاب مُبين [٥] .

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي ١ / ١٩ ، تحقيق الدكتور : عبد الله الخالدي ، ط : دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١ دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٤ / ٤ ، تحقيق : علي عبد الباري عطية . الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ .

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١٤ / ٢٤٥ .

(٥) المقتضب للمبرد ٣ / ١١٨ ، تحقيق : محمد عبد الخالق عظيمة . الناشر : عالم الكتب – بيروت .

واشترط أبو جعفر النحاس في جوازه التوقيف والدليل القاطع فقال : " التقديم والتأخير إنما يكون إذا لم يجز غيرهما " [١] .

وقال في موضع آخر: لا يقع التقديم والتأخير إلا بتوقيف أو دليل قاطع " [٢] .

وإلى هذا ذهب ابن تيمية – رحمه الله – : والتقديم والتأخير على خلاف الأصل ، فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه ، ثم إنما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة ، أما مع اللبس فلا يجوز ؛ لأنه يلتبس على المخاطب " [٣] .

الترجيح : بعد هذا العرض المسهب لأراء العلماء وتباين أقوالهم على ثلاثة أوجه يترجح لدى الباحث القول بجواز التقديم والتأخير عند أمن اللبس واستقامة المعنى عليه مع وجود قرينة دالة عليه ، فإذا أمكن حمل الكلام على الترتيب ولا توجد ضرورة ملجئة للتقديم والتأخير فيبقى الكلام على أصله ، أما طرحه مطلقا – عند أبي حيان وغيره – فلا يمكن قبوله ، فقد وردت به بعض آيات الذكر الحكيم ، ونقل عن السلف القول به لا سيما حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس – رضى الله عنهما – ومجاهد ابن جبر وقتادة وهؤلاء كانوا أعلم بتفسير كتاب الله ولسان العرب من غيرهم.

ويبرهن على صحة ما ذهب إليه الباحث أن أبا حيان رأس المعارضين للقول بالتقديم والتأخير يتراجع عن مذهبه في بعض الأحيان فينقل القول بالتقديم والتأخير دون تعقيب مما يوحى بقبوله له مثال ذلك : عند تفسير قوله تعالى : " إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ " [سورة آل عمران آية٥٥] . وَقَالَ الْفَرَّاءُ : هِيَ وَفَاةُ

---

(١) انظر : القطع والائتناف لأبي جعفر النحاس ص ١٧٥ ، تحقيق : أحمد خطاب العمر ، ط : مطبعة العاني – بغداد ١٣٩٨ هـ .

(٢) السابق ص ٥٤٤ .

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٦ / ٢١٨ ، تحقيق : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، ط : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – المدينة النبوية – المملكة العربية السعودية ، سنة ١٤١٦هـ – ١٩٩٥ م .

مَوْتٍ ، وَلَكِنَّ الْمَعْنَى : مُتَوَفِّيكَ فِي آخِرِ أَمْرِكَ عِنْدَ نُزُولِكَ وَقَتْلِكَ الدَّجَّالَ ، وَفِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ (١) .

أو يعقب عليه في رده بعبارة لطيفة توحى بشبوته مثال ذلك : عند تفسير قوله تعالى : " لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ" [سورة الرعد آية١١] يذكر قول الفراء وغيره بالتقديم والتأخير فيقول : وَقَالَ الْفَرَّاءُ وَجَمَاعَةٌ : فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ أَيْ : لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ . وَرُوِيَ هَذَا عَنْ مُجَاهِدٍ ، وَالنَّخَعِيُّ ، وَابْنُ جُرَيْجٍ ، فَيَكُونُ مِنْ أَمْرِ اللَّهُ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ لِأَنَّهُ صِفَةٌ لِمَرْفُوعٍ ، وَيَتَعَلَّقُ إِذْ ذَاكَ بِمَحْذُوفٍ أَيْ : كَائِنَةٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يَحْتَاجُ فِي هَذَا الْمَعْنَى إِلَى تَقْدِيرِ تَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ (٢) .

وسيأتي المزيد من الأمثلة التطبيقية على أسلوب التقديم والتأخير في آيات الذكر الحكيم في المبحث التالي إن شاء الله تعالى .

---

(١) البحر المحيط ٣ / ١٧٦ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٦٢ .

المبحث الثالث

نماذج مختارة من أسلوب التقديم والتأخير في تنزيل الحكيم الخبير

بعد أن وقفت على تعريف أسلوب التقديم والتأخير ، وأسبابه ، وأنواعه ، وموقف المؤيدين والمعارضين والقائلين بالجمع بين القولين . أضع بين يديك جملة من النماذج المختارة من أسلوب التقديم والتأخير في آيات القرآن الكريم التي لا أدعى حصرها لضيق المقام ، فما تركته أكثر بكثير مما ذكرته ، فالأمر يحتاج إلى رسالة علمية مستقلة لبسط الحديث فيها وحصر ما حواه القرآن الكريم على أمثلة في أسلوب التقديم والتأخير ، وبيان ما فيها من جلال الأسلوب وجمال المعنى وقمة الإعجاز، ولكن ما أذكره من نماذج فيه الغنية والإفادة – إن شاء الله تعالى – فهي مختارات متنوعة طاف بها الباحث على سور القرآن وأجزائه لاستخراجها بصورة كاملة تفي بالغرض وتصل إلى الهدف المنشود والله الموفق.

الأنموذج الأول : قوله تعالى : وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ [سورة البقرة آية٧٢] .

المعنى العام للآية : ذكرت هذه الآية في سياق الحديث عن قصة البقرة التي أمر بنوا إسرائيل بذبحها ، فيقول تعالى مخاطبا اليهود الذين عاصروا البعثة المحمدية مذكرا وموبخاً لهم قتل أحد أسلافهم قريبه لميراثه، فاختصم فريقان منهم في شأن القتل كل فريق ينفي أن يكون القاتل منهم ، و الحال أن من عنده علم السرائر مخرج ما تكتمونه لا محالة إنصافا للعدل بتبرئة المظلوم وأخذ القاتل بجريمته ، فأمرهم ن يضربوا القتيل ببعض أجزاء البقرة التي تقدمت أوصافها فيحيا ويخبر عن قاتله ، فأراهم الله تعالى بهذه القصة آية من آياته الدالة على عظمته وعلمه وقدرته.

أسلوب التقديم والتأخير في الآية: ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الواقعة ، حدثت قبل الأمر بذبح البقرة ، إلا أنها أخرت في الذكر والتلاوة للتشنيع على بنى

إسرائيل بتعدد جناياتهم ولتشويق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بذبحها ، فتتقبلها بشغف واهتمام .

قَالَ الْوَاحِدِيُّ : كَانَ الِاخْتِلَافُ فِي الْقَاتِلِ قَبْلَ ذَبْحِ الْبَقَرَةِ وَإِنَّمَا أُخِّرَ فِي الْكَلَامِ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ" الآية عَلِمَ الْمُخَاطَبُونَ أَنَّ الْبَقَرَةَ لَا تُذْبَحُ إِلَّا لِلدَّلَالَةِ عَلَى قَاتِلٍ خَفِيَتْ عَيْنُهُ عَلَيْهِمْ فَلَمَّا اسْتَقَرَّ عِلْمُ هَذَا فِي نُفُوسِهِمْ أَتْبَعَ بِقَوْلِهِ : " وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا " فَسَأَلْتُمْ مُوسَى فَقَالَ : " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً " [١] .

وقطع البغوي بهذا القول فقال: هَذَا أَوَّلُ الْقِصَّةِ وَإِنْ كَانَتْ مُؤَخَّرَةً فِي التِّلَاوَةِ [٢].

وذكر الزمخشري الغرض الذى من أجله وقع التقديم والتأخير في آيات هذه القصة فقال : فإن قلت : فما للقصة لم تقص على ترتيبها ، وكان حقها أن يقدّم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ، وأن يقال: وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت: كل ما قص من قصص بنى إسرائيل إنما قص تعديداً لما وجد منهم من الجنايات ، وتقريعا لهم عليها ، ولما جدّد فيهم من الآيات العظام . وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك . والثانية للتقريع على قتل النفس المحرّمة وما يتبعه من الآية العظيمة . وإنما قدّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ، ولذهب الغرض في تثنية التقريع . ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى ، دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله : (اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا) حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتثنيته بإخراج

---

(١) تفسير البسيط للواحدي ٣ / ٥٦ ، ط : سلسلة الرسائل العلمية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض .

(٢) معالم التنزيل ١ / ١٠٨ دار طيبة للنشر والتوزيع – الطبعة الرابعة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .

الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها ، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة [١] .

وذكر الحراليّ [٢] غرضا آخر من التقديم والتأخير فقال : قدم نبأ قول موسى عليه السلام على ذكر تدارئهم في القتيل، ابتداء بأشرف القصدين من معنى التشريع الذي هو القائم على أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة . والله أعلم [٣] .

فلهذه الأغراض وقع التقديم والتأخير في الآيات مع أمن اللبس عند المخاطبين لأن وقوع القتل بالضرورة مقدم على الأمر بذبح البقرة لترتبه عليه ، ومراعاة الترتيب حسب النوازل والأحداث ليس مطردا فقد يتقدم في التلاوة الحكم الناسخ ويتأخر عنه المنسوخ كآيتي عدة المتوفى عنها زوجها، وقد يتقدم المسبب على السبب كما في هذه القصة ، وهذا ما نص عليه الإمام الرازي بقوله : أما قوله تعالى : " وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فادرأتم فِيهَا " فاعلم أن وقوع ذلك القتل لا بد وأن يكون متقدماً لأمره تعالى بالذبح . أما الإخبار عن وقوع ذلك القتل وعن أنه لا بد وأن يضرب القتيل ببعض تلك البقرة فلا يجب أن يكون متقدماً على الإخبار عن قصة البقرة ، فقول من يقول : هذه القصة يجب أن تكون متقدمة في التلاوة على الأولى خطأ ، لأن هذه القصة في نفسها يجب أن تكون متقدمة على الأول في الوجود ، فأما التقدم في الذكر فغير واجب لأنه تارة يتقدم ذكر السبب على ذكر الحكم وأخرى على العكس من ذلك [٤] .

---

(١) الكشاف ١ / ١٥٤ دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ .

(٢) الحرالي على بن أحمد بن إبراهيم الإمام أبو الحسن الأندلسي الحرالي أخذ العربية عن أبي الحسن بن خروف ولقى العلماء ومال إلى علم الكلام وله تفسير عجيب . توفي سنة سبع وثلاثين وستمائة. الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي ٢٠ / ١٢٠ ط : دار إحياء التراث سنة ٢٠٠٠م، تحقيق : أحمد الأرناؤوط ، وتركى مصطفى .

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٤٧٥/١ ، ط: دار الكتاب الإسلامي – القاهرة، ومحاسن التأويل للقاسمي ١ / ٣٢٩ ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى سنة ١٤١٨ هـ .

(٤) التفسير الكبير ٣ / ٥٥١ ، ط : دار إحياء التراث العربي – الطبعة الثالثة سنة ١٤٢٠ هـ .

وانتصر صاحب البحر المحيط لمذهبه في عدم القول بالتقديم والتأخير في الآيات فقال : وَلَا شَيْءَ يَضْطَرُّنَا إِلَى اعْتِقَادِ تَقَدُّمِ قَتْلِ الْقَتِيلِ . ثُمَّ سَأَلُوا عَنْ تَعْيِينِ قَاتِلِهِ ، إِذْ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَبْحِ بَقَرَةٍ ، فَيَكُونُ الْأَمْرُ بِالذَّبْحِ مُتَقَدِّمًا فِي النُّزُولِ ، وَالتِّلَاوَةِ مُتَأَخِّرًا فِي الْوُجُودِ، وَيَكُونُ قَتْلُ الْقَتِيلِ مُتَأَخِّرًا فِي النُّزُولِ ، وَالتِّلَاوَةِ مُتَقَدِّمًا فِي الْوُجُودِ، وَلَا إِلَى اعْتِقَادِ كَوْنِ الْأَمْرِ بِالذَّبْحِ وَمَا بَعْدَهُ مُؤَخَّرًا فِي النُّزُولِ ، مُتَقَدِّمًا فِي التِّلَاوَةِ، وَالْإِخْبَارِ عَنْ قَتْلِهِمْ مُقَدَّمًا فِي النُّزُولِ ، مُتَأَخِّرًا فِي التِّلَاوَةِ ، دُونَ تَعَرُّضٍ لِزَمَانِ وُجُودِ الْقِصَّتَيْنِ . وَإِنَّمَا حَمَلَ مَنْ حَمَلَ عَلَى خِلَافِ الظَّاهِرِ ، اعْتِبَارَ مَا رَوَوْا مِنَ الْقَصَصِ الَّذِي لَا يَصِحُّ ، إِذْ لَمْ يَرِدْ بِهِ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ ، وَمَتَى أَمْكَنَ حَمْلُ الشَّيْءِ عَلَى ظَاهِرِهِ كَانَ أَوْلَى ، إِذِ الْعُدُولُ عَنِ الظَّاهِرِ إِلَى غَيْرِ الظَّاهِرِ ، إِنَّمَا يَكُونُ لِمُرَجِّحٍ، وَلَا مُرَجِّحَ ، بَلْ تَظْهَرُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي تَكْلِيفِهِمْ أَوَّلًا ذَبْحَ بَقَرَةٍ . هَلْ يَمْتَثِلُونَ ذَلِكَ أَمْ لَا ؟ وَامْتِثَالُ التَّكَالِيفِ الَّتِي لَا يَظْهَرُ فِيهَا بَادِئَ الرَّأْيِ حِكْمَةٌ أَعْظَمُ مِن امْتِثَالِ مَا تَظْهَرُ فِيهِ حِكْمَةٌ، لِأَنَّهَا طَوَاعِيَةٌ صِرْفٌ ، وَعُبُودِيَّةٌ مَحْضَةٌ ، وَاسْتِسْلَامٌ خَالِصٌ ، بِخِلَافِ مَا تَظْهَرُ لَهُ حِكْمَةٌ ، فَإِنَّ فِي الْعَقْلِ دَاعِيَةً إِلَى امْتِثَالِهِ ، وَحَضًّا عَلَى الْعَمَلِ بِهِ [١] .

هذا قول سديد فامتثال التكليف بدون معرفة العلة منه أتم في مقام العبودية ومنتهى الانقياد والاستسلام لرب العالمين ، لكن الظاهر من حال القوم غير ذلك – والله أعلم – فاللجج والخصومة وكثرة السؤال عن العلة والحكم ديدنهم وقصة البقرة والسؤال عن أوصافها خير شاهد على ذلك ، فهل يتوقع من أمثالهم الانقياد المطلق للحكم بدون معرفة العلة والسبب ، فالذي تميل إليه النفس ترجيح القول بالتقديم والتأخير ، وخاصة إذا تتبعنا الأسلوب القرآني في عرض القصص ، فإنه لا يعطى ترتيب الأحداث حسب وقوعها المقام الأول ، وإنما ترتب حسب الأهمية وحال المخاطب ، وللشيخ محمد عبده كلام وجيه في هذا المقام

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤١٧ وما بعدها .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ عَلَى أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ الْخَاصِّ الَّذِي لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ وَلَمْ يُلْحَقْ فِيهِ ، فَهُوَ فِي هَذِهِ الْقَصَصِ لَمْ يَلْتَزِمْ تَرْتِيبَ الْمُؤَرِّخِينَ ، وَلَا طَرِيقَةَ الْكُتَّابِ فِي تَنْسِيقِ الْكَلَامِ وَتَرْتِيبِهِ عَلَى حَسَبِ الْوَقَائِعِ حَتَّى فِي الْقِصَّةِ الْوَاحِدَةِ ، وَإِنَّمَا يُنَسِّقُ الْكَلَامَ فِيهِ بِأُسْلُوبٍ يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ ، وَيُحَرِّكُ الْفِكْرَ إِلَى النَّظَرِ تَحْرِيكًا ، وَيَهُزُّ النَّفْسَ لِلِاعْتِبَارِ هَزًّا . وَقَدْ رَاعَى فِي قَصَصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْوَاعَ الْمِنَنِ الَّتِي مَنَحَهُمُ اللهُ – تَعَالَى – إِيَّاهَا ، وَضُرُوبَ الْكُفْرَانِ وَالْفُسُوقِ الَّتِي قَابَلُوهَا بِهَا ، وَمَا كَانَ فِي أَثَرِ كُلٍّ ذَلِكَ مِنْ تَأْدِيبِهِمْ بِالْعُقُوبَاتِ ، وَابْتِلَائِهِمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، وَكَيْفَ كَانُوا يُحْدِثُونَ فِي أَثَرِ كُلِّ عُقُوبَةٍ تَوْبَةً ، وَيُحْدِثُ لَهُمْ فِي أَثَرِ كُلِّ تَوْبَةٍ نِعْمَةً ، ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَى بَطَرِهِمْ ، وَيَنْقَلِبُونَ إِلَى كُفْرِهِمْ ... وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ اخْتَلَفَ النَّسَقُ فَذَكَرَ الْمُخَالَفَةَ بَعْدُ فِي قَوْلِهِ : (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا) ثُمَّ الْمِنَّةَ فِي الْخَلَاصِ مِنْهَا فِي قَوْلِهِ : (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ... إِلَخْ ، وَقَدَّمَ عَلَى ذَلِكَ ذِكْرَ وَسِيلَةِ الْخَلَاصِ ، وَهِيَ ذَبْحُ الْبَقَرَةِ بِمَا يُعْجِبُ السَّامِعَ وَيُشَوِّقُهُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا وَرَاءَهَا (حَيْثُ لَمْ يَسْبِقْ فِي الْكَلَامِ عَهْدٌ لِسَبَبِ أَمْرِ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَنْ يَذْبَحُوا بَقَرَةً ، فَالْمُفَاجَأَةُ بِحِكَايَةِ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ ، وَالْجِدَالِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ يُثِيرُ الشَّوْقَ فِي الْأَنْفُسِ إِلَى مَعْرِفَةِ السَّبَبِ ، فَتَتَوَجَّهُ الْفِكْرَةُ بِأَجْمَعِهَا إِلَى تَلَقِّيهِ) إِذِ الْحِكْمَةُ فِي أَمْرِ اللهِ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ بِذَبْحِ بَقَرَةٍ خَفِيَّةٌ وَجَدِيرَةٌ بِأَنْ يَعْجَبَ مِنْهَا السَّامِعُ وَيَحْرِصَ عَلَى طَلَبِهَا ، لَا سِيَّمَا إِذَا لَمْ يَعْتَدْ فَهْمَ الْأَسَالِيبِ الْأَخَّاذَةِ بِالنُّفُوسِ الْهَازَّةِ لِلْقُلُوبِ [1] .

الأنموذج الثاني : قَوْلُهُ تعالى : " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ..... [الآية ٢٢٠ سورة البقرة] .

---

[1] تفسير المنار محمد رشيد رضا ١ / ٢٨٧ ، ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٠ م .

المعنى العام : هذه الآية إخبار عن سؤالهم عن حكم الخمر والميسر، فكان القوم يشربون الخمر ويلعبون الميسر قبل التحريم الذى وقع بالتدريج وكانت هذه الآية الخطوة الأولي في التحريم فبينت ما يترتب على الخمر والميسر من إثم كبير وما نفع لا تقارن ولا يثبت لها قدم أمام ما يترتب عليها من أضرار وآثام، فكان الأولى تركهما، ولكنها لم تفد التحريم القاطع لهما الذي وقع في آيات أخرى لأجل التدرج في التحريم ، ولما بيّن تعالى هذا البيان الشافي ، وأطلع العباد على أسرار شرعه قال : " كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ " أي : العلامات الدالة على الحق ، المؤدية للعلم النافع والحكم الصحيح ، "لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ " أي : لتتفكروا في أسرار شرعه، وما فيه من مصالح دنيوية وأخروية، ولتتفكروا في الدنيا وزوالها، فتزهدوا فيها ، وفي الآخرة وبقائها ، وأنها دار الجزاء فتعملوا لها .

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : روى عن الحسن البصرى رحمه الله أن في قوله تعالى " كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ [البقرة٢ ١٩] فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ " تقديم وتأخير ، وَالتَّقْدِيرُ : كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

وذكر الإمام الرازي رحمه الله في تفسير الآية ثلاثة أوجه فقال : " فِيهِ وُجُوهٌ الْأَوَّلُ : قَالَ الْحَسَنُ : فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ ، وَالتَّقْدِيرُ : كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ وَالثَّانِي : كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ فَيُعَرِّفُكُمْ أَنَّ الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ فِيهِمَا مَنَافِعُ فِي الدُّنْيَا وَمَضَارٌّ فِي الْآخِرَةِ فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ تَرْجِيحِ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا الثَّالِثُ : يُعَرِّفُكُمْ أَنَّ إِنْفَاقَ الْمَالِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ لِأَجْلِ الْآخِرَةِ وَإِمْسَاكَهُ لِأَجْلِ الدُّنْيَا فَتَتَفَكَّرُونَ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ تَرْجِيحِ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا .

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا أَمْكَنَ إِجْرَاءُ الْكَلَامِ عَلَى ظَاهِرِهِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ فِي هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ فَفَرْضُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ عَلَى مَا قَالَهُ الْحَسَنُ يَكُونُ عُدُولًا عَنِ الظَّاهِرِ لَا لِدَلِيلٍ وَأَنَّهُ لَا

يَجُوزُ [١] .

وقال صاحب البحر المحيط : وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ بَابِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ، إِذْ تَقْدِيرُهُ عِنْدَهُ : كَذَلِكَ . يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ فِي الدُّنْيَا والآخرة لعلكم تتفكرون . وقال : وَيُمْكِنُ الْحَمْلُ عَلَى ظَاهِرِ الْكَلَامِ لِتَعَلُّقِ : فِي الدُّنْيَا والآخرة ، بتتفكرون ، فَفَرْضُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، عَلَى مَا قَالَهُ الْحَسَنُ، يَكُونُ عُدُولًا عَنِ الظَّاهِرِ لَا الدَّلِيلِ ، وَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، لِأَنَّ لَعَلَّ ، هُنَا جَارِيَةٌ مَجْرَى التَّعْلِيلِ، فهي كالمتعلقة : ببيين ، وَإِذَا كَانَتْ كَذَلِكَ فَهِيَ وَالظَّرْفُ مِنْ مَطْلُوبٍ : يُبَيِّنُ ، وَتَقَدُّمُ أَحَدِ الْمَطْلُوبَيْنِ ، وَتَأَخُّرُ الْآخَرِ ، لَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ . وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ : لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ، جُمْلَةً اعْتِرَاضِيَّةً ، فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ باب التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ، لِأَنَّ شَرْطَ جُمْلَةِ الِاعْتِرَاضِ أَنْ تَكُونَ فَاصِلَةً بَيْنَ مُتَقَاضِيَيْنِ [٢] .

الترجيح : القول بالتقديم والتأخير في الآية معدول عنه ؛لأنه إذا أمكن حمل الكلام على ظاهره ف الآية فالمصير إليه أولى من التقديم والتأخير ، مراعاة لأصل الترتيب واستقامة المعنى عليه ، وفى هذا الموضع أمكن تأويل الآية على ظاهرها ، والمعنى كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ فَيُعَرِّفُكُمْ أَنَّ الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ فِيهِمَا مَنَافِعُ فِي الدُّنْيَا وَمَضَارٌّ فِي الْآخِرَةِ فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ تَرْجِيحِ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا ، أو يُعَرِّفُكُمْ أَنَّ إِنْفَاقَ الْمَالِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ لِأَجْلِ الْآخِرَةِ وَإِمْسَاكَهُ لِأَجْلِ الدُّنْيَا فَتَتَفَكَّرُونَ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ تَرْجِيحِ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا . وكلا المعنيين صحيح مستقيم مع ظاهر اللفظ .

الأنموذج الثالث : قوله تعالى : إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [سورة آل عمران : ٥٥]

---

(١) التفسير الكبير ٦ / ٤٠٣ .

(٢) البحر المحيط ٢ / ٤٠٩ وما بعدها .

المعنى العام للآية : اذكر يا محمد للعظة والاعتبار أمر عيسى ابن مريم ، إذ قال الله تعالى له في نداء لطيف يعلمه بقبضه ورفعه من الأرض منجيا له من أذى اليهود الذين كانوا ولا يزالون أعداء لكل خير و أنصار لكل شر ، فرفع الله عبده ورسوله عيسى إليه ، وألقي شبهه على غيره ، فأخذوا من ألقي شبهه عليه فقتلوه وصلبوه ، وباءوا بالإثم العظيم بنيتهم أنه رسول الله ، قال الله " وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم " [النساء : ١٥٧] وذلك بعد وعده بنصرة أتباعه وإعزاز دينه في الدنيا والفصل بينهم يوم القيامة فيما يختلفون فيه من الإيمان والكفر والصلاح والإفساد بإثابة المطيع وعقاب العاصي .

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : ذهب بعض المفسرين إلى القول بالتقديم والتأخير في الآية ، والمعنى عليه : إني رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالي إياك فِي الدنيا. ونسب الزجاج هذا القول للنحويين فقال : وقال النحويون في معنى قوله عزَّ وجلَّ : (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ) . التقديم والتأخير – المعنى إني رافعك ومطهرك ومتوفيك وقال بعضهم : المعنى على هذا اللفظ كقوله – عزَّ وجلَّ – (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) فالمعنى على مذْهب هؤُلاءِ – أن الكلام على هذا اللفظ [١] .

ونسبه البغوي للضحاك وغيره فقال : وَالْآخَرُ مَا قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَجَمَاعَةٌ : إِنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا مَعْنَاهُ أَنِّي رَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمُتَوَفِّيكَ بَعْدَ إِنْزَالِكَ مِنَ السَّمَاءِ [٢] .

وذكر الإمام الطبري وجوها في تأويل الآية منها القول بالتقديم التأخير ولكنه عدل عنه فقال : وقال آخرون : معنى ذلك : إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إليّ

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١ / ٤٢٠ ، ط : عالم الكتب – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – = ١٩٨٨ م ، وانظر : معاني القرآن للفراء ١ / ٢١٩ ، ط : دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر – الطبعة الأولى .

(٢) معالم التنزيل ٢ / ٤٦ .

ومطهِّرك من الذين كفروا ، ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا. وقال : هذا من المقدم الذي معناه التأخير ، والمؤخر الذي معناه التقديم . قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا ، قولُ من قال : " معنى ذلك : إني قابضك من الأرض ورافعك إليّ " ، لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال : ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال ، ثم يمكث في الأرض مدة ذكَرها ، اختلفت الرواية في مبلغها ، ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه [١] .

وإتماما للفائدة والوقوف على القول الفصل في هذه القضية ورفع الإشكال عنها نستعرض الوجوه المذكورة في تفسير الآية فقال الإمام الرازي – رحمه الله – : وَاخْتَلَفَ

---

(١) جامع البيان ٦ / ٤٥٨ والحديث أخرجه أبوداود في سننه : عَنْ أَبِي هريرة ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : " لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ – يَعْنِي عِيسَى – وَإِنَّهُ نَازِلٌ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ : رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ، بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ ، فَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ ، وَيُهْلِكُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، ثُمَّ يُتَوَفَّى فَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ " . سنن أبي داود : كتاب الملاحم ، باب خروج الدجال ٤ / ١١٧ ، ط : المكتبة العصرية – صيدا – بيروت ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، والحديث صححه الألباني . انظر : السلسلة الصحيحة ٥ / ٢١٤ ، ط : مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض – الطبعة الأولى ، وأخرجه أحمد في مسنده بلفظ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : " الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ : دِينُهُمْ وَاحِدٌ ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى ، وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ، سَبْطٌ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ ، بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، = وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ ، وَيُعَطِّلُ الْمِلَلَ ، حَتَّى تَهْلِكَ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلُ كُلُّهَا غَيْرَ الْإِسْلَامِ ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ الْكَذَّابَ ، وَتَقَعُ الْأَمَنَةُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الْإِبِلُ مَعَ الْأُسْدِ جَمِيعًا ، وَالنُّمُورُ مَعَ الْبَقَرِ ، وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ ، وَيَلْعَبَ الصِّبْيَانُ وَالْغِلْمَانُ بِالْحَيَّاتِ ، لَا يَضُرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَيَمْكُثُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ ، ثُمَّ يُتَوَفَّى فَيُصَلِّيَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَيَدْفِنُونَهُ " . مسند أحمد ١٥ / ٣٩٨ ، ط : مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م . قال الألباني : قلت : وهذا إسناد صحيح كما قال الحافظ في " الفتح " ٦ / ٣٨٤ ، وهو على شرط مسلم . انظر : السلسلة الصحيحة للألباني ٥ / ٢١٤ .

أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ عَلَى طَرِيقَيْنِ : أَحَدُهُمَا : إِجْرَاءُ الْآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا مِنْ غَيْرِ تَقْدِيمٍ ، وَلَا تَأْخِيرٍ فِيهَا . وَالثَّانِي : فَرْضُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِيهَا ،

أَمَّا الطَّرِيقُ الأَوَّلُ فَبَيَانُهُ مِنْ وُجُوهٍ : الْأَوَّلُ : مَعْنَى قَوْلِهِ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ أَيْ مُتَمِّمٌ عُمُرَكَ ، فَحِينَئِذٍ أَتَوَفَّاكَ ، فَلَا أَتْرُكُهُمْ حَتَّى يَقْتُلُوكَ ، بَلْ أَنَا رَافِعُكَ إِلَى سَمَائِي ، وَمُقَرِّبُكَ بِمَلَائِكَتِي ، وَأَصُونُكَ عَنْ أَنْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ قَتْلِكَ وَهَذَا تَأْوِيلٌ حَسَنٌ . وَالثَّانِي : مُتَوَفِّيكَ أَيْ مُمِيتُكَ ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَمُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالُوا : وَالْمَقْصُودُ أَنْ لَا يَصِلَ أَعْدَاؤُهُ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى قَتْلِهِ ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَكْرَمَهُ بِأَنْ رَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ اخْتَلَفُوا عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : قَالَ وَهْبٌ : تُوُفِّيَ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ ، ثُمَّ رُفِعَ . وَثَانِيهَا : قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : تُوُفِّيَ سَبْعَ سَاعَاتٍ ، ثُمَّ أَحْيَاهُ اللَّهُ وَرَفَعَهُ . الثَّالِثُ : قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : إِنَّهُ تَعَالَى تَوَفَّاهُ حِينَ رَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ تَعَالَى : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها [الزُّمَرِ : ٤٢] .

الْوَجْهُ الرَّابِعُ : فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ أَنَّ الْوَاوَ فِي قَوْلِهِ مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ تُفِيدُ التَّرْتِيبَ فَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يَفْعَلُ بِهِ هَذِهِ الْأَفْعَالَ، فَأَمَّا كَيْفَ يَفْعَلُ، وَمَتَى يَفْعَلُ، فَالْأَمْرُ فِيهِ مَوْقُوفٌ عَلَى الدَّلِيلِ، وَقَدْ ثَبَتَ الدَّلِيلُ أَنَّهُ حَيٌّ وَوَرَدَ الْخَبَرُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّهُ سَيَنْزِلُ وَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ» ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى يَتَوَفَّاهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

الْوَجْهُ الْخَامِسُ : فِي التَّأْوِيلِ مَا قَالَهُ أَبُو بَكْرٍ الْوَاسِطِيُّ ، وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ عَنْ شَهَوَاتِكَ وَحُظُوظِ نَفْسِكَ ، ثُمَّ قَالَ : وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَصِرْ فَانِيًا عَمَّا سِوَى اللَّهِ لَا يَكُونُ لَهُ وُصُولٌ إِلَى مَقَامِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ ، وَأَيْضًا فَعِيسَى لَمَّا رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ صَارَ حَالُهُ كَحَالِ الْمَلَائِكَةِ فِي زَوَالِ الشَّهْوَةِ، وَالْغَضَبِ وَالْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ .

وَالْوَجْهُ السَّادِسُ : أَنَّ التَّوَفِّيَ أَخْذُ الشَّيْءِ وَافِيًا ، وَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَخْطُرُ بِبَالِهِ أَنَّ الَّذِي رَفَعَهُ اللَّهُ هُوَ رُوحُهُ لَا جَسَدُهُ ذَكَرَ هَذَا الْكَلَامَ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رُفِعَ بِتَمَامِهِ إِلَى السَّمَاءِ بِرُوحِهِ وَبِجَسَدِهِ وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا التَّأْوِيلِ

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ [النِّسَاء : ١١٣] .

وَالْوَجْهُ السَّابِعُ : إِنِّي مُتَوَفِّيكَ أَيْ أَجْعَلُكَ كَالْمُتَوَفَّى لِأَنَّهُ إِذَا رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ وَانْقَطَعَ خَبَرُهُ وَأَثَرُهُ عَنِ الْأَرْضِ كَانَ كَالْمُتَوَفَّى ، وَإِطْلَاقُ اسْمِ الشَّيْءِ عَلَى مَا يُشَابِهُهُ فِي أَكْثَرِ خَوَاصِّهِ وَصِفَاتِهِ جَائِزٌ حَسَنٌ .

الْوَجْهُ الثَّامِنُ : أَنَّ التَّوَفِّيَ هُوَ الْقَبْضُ يُقَالُ : وَفَّانِي فُلَانٌ دَرَاهِمِي وَأَوْفَانِي وَتَوَفَّيْتُهَا مِنْهُ ، كَمَا يُقَالُ : سَلَّمَ فُلَانٌ دَرَاهِمِي إِلَيَّ وَتَسَلَّمْتُهَا مِنْهُ ، وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا تُوُفِّيَ بِمَعْنَى اسْتَوْفَى وَعَلَى كِلَا الِاحْتِمَالَيْنِ كَانَ إِخْرَاجُهُ مِنَ الْأَرْضِ وَإِصْعَادُهُ إِلَى السَّمَاءِ تَوَفِّيًا لَهُ . فَإِنْ قِيلَ : فَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ كَانَ التَّوَفِّي عَيْنَ الرَّفْعِ إِلَيْهِ فَيَصِيرُ قَوْلُهُ وَرافِعُكَ إِلَيَّ تَكْرَارًا . قُلْنَا : قَوْلُهُ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ يَدُلُّ عَلَى حُصُولِ التَّوَفِّي وَهُوَ جِنْسٌ تَحْتَهُ أَنْوَاعٌ بَعْضُهَا بِالْمَوْتِ وَبَعْضُهَا بِالْإِصْعَادِ إِلَى السَّمَاءِ ، فَلَمَّا قَالَ بَعْدَهُ وَرافِعُكَ إِلَيَّ كَانَ هَذَا تَعْيِينًا لِلنَّوْعِ وَلَمْ يَكُنْ تَكْرَارًا .

الْوَجْهُ التَّاسِعُ : أَنْ يُقَدَّرَ فِيهِ حَذْفُ الْمُضَافِ وَالتَّقْدِيرُ : مُتَوَفِّي عَمَلِكَ بِمَعْنَى مُسْتَوْفِي عَمَلِكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ أَيْ وَرَافِعُ عَمَلِكَ إِلَيَّ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ " إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ " [فَاطِرٍ : ١٠] وَالْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ تَعَالَى بَشَّرَهُ بِقَبُولِ طَاعَتِهِ وَأَعْمَالِهِ ، وَعَرَّفَهُ أَنَّ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْمَشَاقِّ فِي تَمْشِيَةِ دِينِهِ وَإِظْهَارِ شَرِيعَتِهِ مِنَ الْأَعْدَاءِ فَهُوَ لَا يُضِيعُ أَجْرَهُ وَلَا يَهْدِمُ ثَوَابَهُ ، فَهَذِهِ جُمْلَةُ الْوُجُوهِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى قَوْلِ مَنْ يُجْرِي الْآيَةَ عَلَى ظَاهِرِهَا .

الطَّرِيقُ الثَّانِي : وَهُوَ قَوْلُ مَنْ قَالَ : لَا بُدَّ فِي الْآيَةِ مِنْ تَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحْتَاجَ فِيهَا إِلَى تَقْدِيمٍ أَوْ تَأْخِيرٍ ، قَالُوا إِنَّ قَوْلَهُ وَرافِعُكَ إِلَيَّ يَقْتَضِي أَنَّهُ رَفَعَهُ حَيًّا ، وَالْوَاوُ لَا تَقْتَضِي التَّرْتِيبَ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَقُولَ فِيهَا تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ ، وَالْمَعْنَى : أَنِّي رَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمُتَوَفِّيكَ بَعْدَ إِنْزَالِي إِيَّاكَ فِي الدُّنْيَا ، وَمِثْلُهُ مِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْوُجُوهَ الْكَثِيرَةَ الَّتِي قَدَّمْنَاهَا تُغْنِي عَنِ الْتِزَامِ

مُخَالَفَةِ الظَّاهِرِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ [١] .

هذه جملة الوجوه المذكورة في تفسير الآية ، وفى بعضها تكلف ظاهر وبعد عن ظاهر اللفظ ، وما يطمئن إليه القلب وتسكن معه النفس القول بأن معناها إني قابضك من الأرض ورافعك إليّ بلا موت ، ويؤيده الأحاديث الواردة بنزوله عليه السلام في آخر الزمان ، وإذا أمكن حمل الآية على بعض الوجوه الموافقة لظاهر النظم فالقول به مقدم على التقديم والتأخير .

الأنموذج الرابع : قوله تعالى : " وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا " [سورة النساء : ٨٣]

المعنى العام للآية : يخبر تعالى عن حال المنافقين المرجفين في المدينة ناعياً عليهم إرجافهم وهزائمهم النفسية فيقول : " وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ " أي : إذا وصل إليهم خبر من سرايا الجهاد سواء بنصر أو هزيمة سارعوا بإفشائه وإذاعته وعدم كتمانه بسبب مرض قلوبهم وسوء طويتهم ، فإذا كان الأمر بالنصر المعبر عنه بالأمن فهم يعلنونه حسداً أو طمعاً في غنيمة ، وإذا كان بالهزيمة المعبر عنها بالخوف يعلنونه فزعاً وخوفاً وإرجافا لأهل المدينة ؛ لأنهم جبناء كما تقدم وصفهم ، وبعد وصفهم بهذه الحالة ترشد الآية عما ينبغي أن يكونوا عليه فى مثل هذه الحالة برد الأمر إلى الرسول القائد الأعلى للمسلمين ، وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ " وهم أمراء السرايا المجاهدة " لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ " أي : لاستنبطوا حقيقة الخبر وما يترتب عليه فإن كان في إذاعته نفعاً أذاعوه ، وإن كان ضاراً كتموه مراعاة لمصلحة المسلمين . ثم قال تعالى : " وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ " أيها المؤمنون " لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ " في قبول تلك الإشاعات المغرضة والإذاعات المثبطة " إلا قَلِيلاً " منكم من ذوي الرأي والنهى ممن يمتازون بالثبات والثقة بنصر الله ، فمثلهم لا تفزعهم الأراجيف ولا يلتفتون للأخبار المضللة والمغرضة ، ككبار

---

[١] التفسير الكبير للرازي ٨ / ٢٧٣ ، ٢٨٣ .

الصحابة من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين .

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : ذهب كثير من المفسرين والنحاة في تأويل الآية إلى تقديم أداة الاستثناء والمستثنى على قوله : ولو ردوه إلى الرسول وجعلوا المستثنى منه قوله " أذاعوا به " فيكون تقدير الآية " وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به إلا قليلا ولو ردوه إلى الرسول . ووردت وجوه أخرى في تأويل الآية إليك بيانها.

روى الإمام الطبري عن ابن عباس قوله : " ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا " ، فهو في أول الآية لخبر المنافقين ، قال : " وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به " ، يعني بـــ " القليل " ، المؤمنين ، كقوله تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قَيِّمًا) [سورة الكهف : ١ ، ٢] يقول الحمد لله الذي أنزل الكتاب عدلا قيّما ، ولم يجعل له عوجًا . قال ابن زيد : هذه الآية مقدَّمة ومؤخرة ، إنما هي : أذاعوا به إلا قليلا منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لم ينج قليل ولا كثير ...

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي ، قولُ من قال: عنى باستثناء " القليل " من " الإذاعة " ، وقال : معنى الكلام : وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به إلا قليلا ولو ردوه إلى الرسول . وإنما قلنا إن ذلك أولى بالصواب ، لأنه لا يخلو القولُ في ذلك من أحد الأقوال التي ذكرنا ، وغير جائز أن يكون من قوله : " لاتبعتم الشيطان " ، لأن من تفضل الله عليه بفضله ورحمته ، فغير جائز أن يكون من تُبَّاع الشيطان [١] .

قال البعوي فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ اسْتَثْنَى الْقَلِيلَ وَلَوْلَا فَضْلُهُ لَاتَّبَعَ الْكُلُّ الشَّيْطَانَ ؟ قِيلَ : هُوَ رَاجِعٌ إِلَى مَا قَبْلَهُ ، قِيلَ : مَعْنَاهُ أَذَاعُوا بِهِ إِلَّا قَلِيلًا لَمْ يُفْشِهِ ، عَنِيَ بِالْقَلِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذَا قَوْلُ الْكَلْبِيِّ وَاخْتِيَارُ الْفَرَّاءِ ، وَقَالَ : لِأَنَّ عِلْمَ السِّرِّ إِذَا ظَهَرَ عَلِمَهُ الْمُسْتَنْبَطُ

---

[١] جامع البيان ٨ / ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ .

وَغَيْرُهُ ، وَالْإِذَاعَةُ قَدْ تَكُونُ فِي بَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ ، وَقِيلَ : لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا ثُمَّ قَوْلُهُ : " وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ " كَلَامٌ تَامٌّ [١] .

ورجح الفراء – رحمه الله – القول بالتقديم والتأخير وجعل الاستثناء من قوله " أذاعوا به " أجود الوجهين فقال : " وقوله : لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلَّا قَلِيلًا قال المفسرون معناه : لعلمه الذين يستنبطونه إلا قليلا . ويقال : أذاعوا به إلا قليلا . وهو أجود الوجهين لأن علم السرايا إذا ظهر علمه المستنبط وغيره ، والإذاعة قد تكون في بعضهم دون بعض . فلذلك استحسنت الاستثناء من الإذاعة [٢] .

وبسط الزجاج القول في توجيه الاستثناء ولم يعجبه توجيه الفراء المتقدم وغلط النحاة في هذا التوجيه فقال : قال بعضهم : " لولا ما أنزله اللَّه عليكم من القرآن ، وبين لكم من الآيات على لسان نبيه لاتَبعْتُم الشيطانَ إِلَّا قَلِيلًا ، أي كان أولكم بجوار الكفر . وهذا ليس قولُ أحد من أهل اللغة .

قال أهل اللغة كلُّهم : المعنى : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا) إنما هو استثناء من قوله (لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) إِلَّا قَلِيلًا) .

وقال النحويون : المعنى أذاعوا به إلا قليلًا. وقالوا أن يكون الاستثناء من أذاعوا به إلا قليلًا أجود، لأن مَا عُلِمَ بالاستنباط فليس الأكثر يعرفه، إنما يستنبط القليل، لأن الفضائل والاستنباط ، والاستخراج في القليل من الناس. وهذا في هذا الموضع غلط من النحويين ، لأن هذا الاستنباط ليس بشيء يستخرج بنظر وتفكر، إنما هو استنباط خبر، فالأكثر يعرف الخبر ، إذا خُبِرَ به ، وإنما القليل المبالِغُ في البلادة لا يَعْلَمُ ما يُخْبَرُ به ، والقول الأول مع هذين القولين جائزة كلها . والله أعلم [٣] .

---

(١) معالم التنزيل ٢ / ٢٥٥ .

(٢) معاني القرآن للفراء ١ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢ / ٨٤ .

ولم ينتصر أبو حيان في هذه الآية لمذهبه في هذه الآية فيكتفى بالرواية عن القائلين بالتقديم والتأخير وإن صدرها بما يوحي بتضعيفها بتعبيره "وقيل " ولكنه لم يعقب عليها برد أو قبول فقال : " وَقِيلَ : إِلَّا قَلِيلًا مُسْتَثْنًى مِنْ قَوْلِهِ : أَذَاعُوا بِهِ ، وَالتَّقْدِيرُ : أَذَاعُوا بِهِ إِلَّا قَلِيلًا ، قَالَهُ : ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ زَيْدٍ، وَاخْتَارَهُ : الْكِسَائِيُّ ، وَالْفَرَّاءُ ، وَأَبُو عُبَيْدٍ ، وَابْنُ حَرْبٍ ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ النَّحْوِيِّينَ ، وَرَجَّحَهُ الطَّبَرِيُّ . وَقِيلَ : مُسْتَثْنًى مِنْ قَوْلِهِ : لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ، قَالَهُ : الْحَسَنُ ، وَقَتَادَةُ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ عُيَيْنَةَ . وَقَالَ مَكِّيٌّ : وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَيْ : رَحْمَتُهُ وَنِعْمَتُهُ إِذْ عَافَاكُمْ مِمَّا ابْتَلَى بِهِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ بِالتَّبْيِيتِ ، وَالْخِلَافِ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ هُوَ خِطَابٌ لِلَّذِينِ قَالَ لَهُمْ : خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُباتٍ [١] .

مما سبق يتضح لنا وجاهة القول بأسلوب التقديم والتأخير في الآية لاستقامة المعنى عليه وعدم ورود ما يدفعه .

الأنموذج الخامس : قوله تعالى : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ [سورة الأنعام : ١٠٠] .

المعنى العام للآية : بعد نصب الأدلة وإقامة البراهين المادية والعقلية على وجود الله وتوحيده في الآيات السابقة ، أردفها بالحديث عمن عمى بصره وفؤاده عن هذه الأدلة ، وضعف عقله واستهوته الشياطين بعدم التسليم لها وقبولها ، وانساق وراء شيطانه وهواه فجعلوا للخالق شركاء من الجن ، وتمادوا في غيهم وضلالهم فادعوا أبوته للبنين والبنات عن جهل منهم بصفات الخالق جل وعلا المنزه عن الشريك والصاحبة والولد ، واتفقت على هذه الفرية عرب الجاهلية واليهود والنصارى " سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ " فنزه الرب تبارك وتعالى نفسه عما وصفوه به كذباً وبهتانا من صفات الحوادث التي لا تليق بذاته المقدسة .

---

[١] البحر المحيط ٣ / ٧٣٠ .

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : وذلك بتقديم المفعول الثاني لجعل " شركاء " على المفعول الأول "الجن" لاستعظام ما ادعوه من الشرك مطلقا بصرف النظر عن ماهية الشريك سواء أكان الشريك جنيا أو ملكا أو جمادا أو إنسانا أو غير ذلك .

قال الزمخشري : فإن قلت : فما فائدة التقديم ؟ قلت : فائدته استعظام أن يتخذ لله شريك مَن كان ملكا أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك . ولذلك قدّم اسم الله على الشركاء [١] .

وقال الرازي قَوْلُهُ تَعَالَى : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ مَعْنَاهُ : وَجَعَلُوا الْجِنَّ شركاء للَّه . فَإِنْ قِيلَ : فَمَا الْفَائِدَةُ فِي التَّقْدِيمِ ؟ قُلْنَا : قَالَ سِيبَوَيْهِ : إِنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ الْأَهَمَّ الَّذِي هُمْ بِشَأْنِهِ أَعَنَى ، فَالْفَائِدَةُ فِي هَذَا التَّقْدِيمِ اسْتِعْظَامُ أَنْ يُتَّخَذَ للَّه شَرِيكٌ سَوَاءٌ كَانَ مَلَكًا أَوْ جِنِّيًّا أَوْ إِنْسِيًّا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ . فَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي تَقْدِيمِ اسْمِ اللَّه عَلَى الشُّرَكَاءِ [٢] .

ولعبد القاهر الجرجاني توجيه رائع وملحظ لطيف في نكتة التقديم والتأخير في الآية أذكره بتمامه فقال : ليس بخافَ أن لتقديمِ " الشركاءِ " حُسْناً وروعةً ومأخذاً من القلوبِ ، أنتَ لا تجدُ شيئاً منه إنْ أنتَ أخَّرْتَ فقلتَ : " وجعَلوا الجنَّ شركاء الله " ، وأنك ترى حالَك حالَ مَنْ نُقِلَ عن الصورةِ المُبْهجة والمَنْظر الرائقِ والحُسْنِ الباهرِ ، إلى الشيءِ الغُفْل الذي لا تَحْلَى منهُ بكثيرِ طائلٍ ، ولا تصيرُ النفسُ به إلى حاصلٍ . والسببُ في أن كانَ ذلك كذلكَ ، هو أن للتقديمِ فائدة شريفة ومعنى جليلاً لا سبيلَ إليه مع التأخيرِ .

بيانه ، أنَّا وإنْ كنَّا نرى جملةَ المعنى ومحصولَه أنَّهم جعلوا الجنَّ شركاءَ وعبدوهُمْ مع الله تعالى ، وكان هذا المعنى يَحصُلَ مع التأخيرِ حصولَه مع التقديمِ ، فإنَّ تقديمَ " الشركاءِ " يفيدُ هذا المعنى ، ويفيدُ معه معنى آخر ، وهو أنه ما كانَ يَنبغي أن يكونَ لله شريكٌ ، لا من الجن ولا غير الجن . وإذا أخر فقيل : " جعلوا الجن شركاء الله " ، لم يُفِدْ

---

(١) الكشاف ٢ / ٥٢ .

(٢) التفسير الكبير ١٣ / ٨٩ ، ٩٠ .

ذلكَ ، ولم يكنْ فيه شيءٌ أكثرُ من الإخبارِ عنهم بأنهم عبَدوا الجنَّ مع الله تعالى ، فأما إنكارُ أنْ يُعْبَد مَعَ الله غيرُه ، وأنْ يكونَ له شريكٌ مِنَ الجنِّ وغيرِ الجنِّ ، فلا يكونُ في اللفظِ مع تأخيرِ " الشركاءِ " دليلٌ عليه . وذلك أنَّ التقديرَ يكونُ مع التقديمِ : أنَّ " شركاءَ " مفعولٌ أول لجعل ، و" الله " في موضعِ المفعولِ الثاني ، ويكونُ " الجنّ " على كلام ثانٍ ، وعلى تقديرِ أنه كأنه قيل : " فمن جَعلوا شركاءَ لله تعالى ؟ " ، فقيل : "الجنَّ" . وإذا كان التقديرُ في "شركَاء" أنه مفعولٌ أوّلُ ، و" لله " في موضعِ المفعولِ الثاني ، وقَعَ الإنكارُ على كونِ شركاء لله تعالى على الإطلاق ، من غيرِ اختصاصِ شيءٍ دونَ شيءٍ . وحصَلَ مِن ذلك أنَّ اتخاذَ الشريكِ من غَيْرِ الجنِّ قد دخَلَ في الإنكارِ دخولَ اتِّخاذِه من الجنِّ ، لأَنَّ الصفةَ إذا ذُكرت مُجَرَّدة غيرَ مُجْراة على شيءٍ ، كانَ الذي تَعَلَّقَ بها من النَّفْي عامًّا في كلِّ ما يجوزُ أن تكونَ له تلك الصفةُ. فإذا قلتَ: "ما في الدار كريمٌ"، كنتَ نفَيْتَ الكينونَةَ في الدارِ عنْ كلِّ مَنْ يكون الكرَمُ صفةً له. وحكْمُ الإنكارِ أبداً حكْمُ النفي. وإذا أُخِّر فقيلَ: "وجعَلوا الجنَّ شركاءَ لله"، كان "الجنَّ" مفعولاً أولَ، و"الشركاء" مفعولاً ثانياً. وإذا كان كذلك، كان "الشركَاء" مخصوصاً غيرَ مُطْلَق، من حيثُ كانَ مُحالاً أن يَجْريَ خبراً على الجنِّ، ثم يكونَ عامّاً فيهم وفي غيرهم. وإذا كان كذلكَ، احْتَمَلَ أن يكونَ القصدُ بالإنكار إلى "الجنِّ" خصوصاً، أن يكونوا "شركاءَ" دون غيرهم، جل الله تعالى عن أن يكونَ له شريكٌ وشبيهٌ بحال. فانظرْ الآنَ إلى شرَفِ ما حصَل من المعنى بأن قُدِّم "الشركاءُ"، واعتبرْهُ فإنهُ يَنبِّهك لكثيرٍ منَ الأمورِ، ويدُلُّك على عِظَمِ شأنِ "النظمِ"، وتعلمُ به كيف يكونُ الإيجازُ بهِ وما صُورَتُه؟ وكيفَ يُزادُ في المعنى من غيرِ أن يُزاد في اللفظِ، إذ قدْ ترَى أنْ ليس إلاّ تقديمٌ وتأخيرٌ، وأنه قد حصَل لك بذلك من زيادةِ المعنى، ما إنْ حاولتَ مع تَرْكِهِ لم يحصُلْ لك، واحتجْت إلى أن تَسْتَأْنفَ له كلاماً، نحو أن تقول: "وجعلوا الجن شركاء الله، وما يَنْبغي أن يكونَ لله شريكٌ لا مِنَ الجنِّ ولا مِنْ غَيْرهم"، ثم لا يكونُ له إذا عَقَلَ من كلامَيْن من الشَّرَف والفخامةِ ومِن كَرَمِ الموقعِ في النفسِ، ما تَجِدُه له الآنَ وقد عَقلَ من هذا الكلام الواحد [١] . فأنت

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٨٦ إلى ٢٨٨ ، ط : مطبعة المدني – القاهرة – الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٢م ، تحقيق : محمود شاكر .

ترى معي أن أسلوب التقديم والتأخير في الآية يحتوى على حكمة دقيقة ومعنى لطيف وهو تنزيهه تعالى عن الشركاء مطلقا دون نظر إلى ماهية الشريك ، بالإضافة إلى جمال الأسلوب وبراعة التصوير مع وجازة اللفظ ولذلك لم ينازع أحد في القول بالتقديم والتأخير في الآية .

الأنموذج السادس : قوله تعالى : كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [سورة الأعراف : ٢]

المعنى العام للآية : يقول جل ذكره لنبيه ومصطفاه ﷺ مبينا له جلالة هذا الكتاب وعظمته وما حواه من شريعة محكمة مفصلة جامعة لما يحتاج إليه العباد محققة لما فيه سعادتهم الدنيوية والأخروية ، وعقيدة وسطية تدعو إلى التوحيد ونبذ عقائد الشرك والإلحاد والتشبيه والتجسيم والتعطيل وغير ذلك من عقائد أهل الضلال ، فيقول : هذا "كِتَابٌ أُنزلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ " أي: ضيق ومشقة أو ريبة واشتباه، بل لتعلم أنه من لدن حكيم خبير " لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ " ، ومن مقاصد إنزال هذا الكتاب إنذار الخلق بما يترتب على تكذيبه والعمل بخلافه من عذاب أليم وموعظتهم وتذكيرهم بأنباء الأمم السالفة وما حل بهم من قطع دابرهم واستئصال شأفتهم فتقوم الحجة على المعاندين والذكرى للمؤمنين كما قال تعالى: "وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ" [سورة الذاريات: ٥٥]

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : ذهب بعض أهل التفسير واللغة إلى القول بالتقديم والتأخير في نظم الآية فقوله جل ذكره (لِتُنْذِرَ بِهِ) معناه التقديم ، والتقدير كتاب أنزل إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين ، فلا يكن في صدرك حرج منه .

وإلى هذا ذهب الفراء [١] والزجاج [٢] من النحاة واللغويين وانتصر لهذا القول إمام المفسرين أبو جعفر الطبري فقال : " يعني بذلك تعالى ذكره : هذا كتاب أنزلناه

---

(١) انظر : معاني القرآن للفراء ١ / ٣٧٠ .

(٢) انظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢ / ٣١٥ .

إليك ، يا محمد ، لتنذر به من أمرتك بإنذاره ، (وذكرى للمؤمنين) وهو من المؤخر الذي معناه التقديم. ومعناه: "كتاب أنزل إليك لتنذر به"، و" ذكرى للمؤمنين " " فلا يكن في صدرك حرج منه ". وإذا كان ذلك معناه، كان موضع قوله: (وذكرى) نصبًا ، بمعنى : أنزلنا إليك هذا الكتاب لتنذر به ، وتذكر به المؤمنين [١] .

وفصل القول الإمام الرازي في متعلق اللام في قوله تعالى " لتنذر" فذكر أنها متعلقة ب"أنزل" على التقديم والتأخير ونسب هذا القول للفراء وأتبعه ببيان الفائدة المترتبة عليه فقال : " لِتُنْذِرَ بِهِ هَذِهِ « اللَّامُ » بِمَاذَا تَتَعَلَّقُ ؟ فِيهِ أَقْوَالٌ : الْأَوَّلُ : قَالَ الْفَرَّاءُ : إنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ : أُنْزِلَ إلَيْكَ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ وَالتَّقْدِيرُ : كِتَابٌ أُنْزِلَ إلَيْكَ لِتُنْذِرَ بِهِ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ . فَإِنْ قِيلَ : فَمَا فَائِدَةُ هَذَا التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ؟ .

قُلْنَا : لِأَنَّ الْإِقْدَامَ عَلَى الْإِنْذَارِ وَالتَّبْلِيغِ لَا يَتِمُّ وَلَا يَكْمُلُ إلَّا عِنْدَ زَوَالِ الْحَرَجِ عَنِ الصَّدْرِ فَلِهَذَا السبب أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِزَالَةِ الْحَرَجِ عَنِ الصَّدْرِ ثُمَّ أَمَرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْإِنْذَارِ وَالتَّبْلِيغِ . الثَّانِي : قال ابن الأنباري : اللام هاهنا بِمَعْنَى : كَيْ . وَالتَّقْدِيرُ : فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ شَكٌّ كَيْ تُنْذِرَ غَيْرَكَ . الثَّالِثُ : قَالَ صَاحِبُ « النظم » : اللام هاهنا : بِمَعْنَى : أَنْ . وَالتَّقْدِيرُ : لَا يَضِقْ صَدْرُكَ وَلَا يَضْعُفْ عَنْ أَنْ تُنْذِرَ بِهِ وَالْعَرَبُ تَضَعُ هَذِهِ اللَّامَ فِي مَوْضِعِ « أَنْ » قَالَ تَعَالَى : يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ [التَّوْبَةِ: ٣٢] وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا [الصَّفِّ : ٨] وَهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ : وَالرَّابِعُ : تَقْدِيرُ الْكَلَامِ : إنَّ هَذَا الْكِتَابَ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ وَإِذَا علمت انه تنزيل الله تعالى فاعلم انه عِنَايَةَ اللَّهِ مَعَكَ وَإِذَا عَلِمْتَ هَذَا فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ لِأَنَّ مَنْ كَانَ اللَّهُ حَافِظًا لَهُ وَنَاصِرًا لَمْ يَخَفْ أَحَدًا وَإِذَا زَالَ الْخَوْفُ ، وَالضِّيقُ عَنِ الْقَلْبِ فَاشْتَغَلَ بِالْإِنْذَارِ وَالتَّبْلِيغِ وَالتَّذْكِيرِ اشْتِغَالَ الرِّجَالِ الْأَبْطَالِ وَلَا تُبَالِ بِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ وَالْإِبْطَالِ [٢] . وذكر صاحب البحر الأقوال السابقة في متعلق اللام في قوله " لتنذر به " بدون ترجيح فكأنه

---

(١) جامع البيان ١٢ / ٢٩٧ .

(٢) التفسير الكبير ١٤ / ١٩٥ ، ١٩٦ .

يرى جواز القول بالتقديم والتأخير في الآية مخالفا بذلك مذهبه [١] وبناء على ما سبق فلا مانع من القول بالتقديم والتأخير في الآية لما فيه من لطيفة وفائدة وهى : أَنَّ الْإِنْذَارِ وَالتَّبْلِيغِ لَا يَتِمُّ وَلَا يَكْمُلُ إِلَّا بعد زَوَالِ الْحَرَجِ والضيق عَنِ الصَّدْرِ فَلِهَذَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِزَالَةِ الْحَرَجِ عَنِ الصَّدْرِ ثُمَّ أَمَرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْإِنْذَارِ وَالتَّبْلِيغِ .

الأنموذج السابع : قوله تعالى : فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ [سورة التوبة: ٥٥]

المعنى العام للآية : ذكرت هذه الآية في سياق الحديث عن أحوال المنافقين وفضحهم بما هم عليه من أخبث الصفات وسوء الطباع وهو المقصد العام لهذه السورة التي سميت بالفاضحة ، فورد النهى للنبي ﷺ وكل من يصلح أن يتوجه له الخطاب من المؤمنين " فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ولا سائر نعم الله عليهم، فإنما هي في حقيقة الأمر من أسباب المحن والآفات عليهم . أما كيفية العذاب بأموالهم في الدنيا فهي سبب لتعذيبهم بلما يلحقهم من عناء ومشقة في جمعها ، وملازمة الهم والقلق لهم خوفا من فواتها وضياعها ، ثم ينفقونها كارهين في الجهاد والزكاة وفي سبيل الله وتقوية المسلمين ، أما عن حسرتهم وتعذيبهم بأولادهم فلدخولهم الإسلام الذي لا يدين به حقيقة هؤلاء المنافقون وفى ذلك ألم نفسي وغيظ يملأ قلوبهم يتجدد بثبات أبنائهم ووفائهم لهذا الدين ، فما أعظم الأمر على رجل يرى ابنه يدين بغير دينه ولا يستطيع منعه ، وربما يموت في الحروب مستشهدا في سبيل هذا الدين فتعظم الفاجعة عنده ويلزمه الغم والحزن عليه ، وفي الآخرة العذاب الشديد ؛ لموته على الكفر وقد حبط عمله فلا ينفعه ما أنفق في دنياه رياء ونفاقا ولا يؤجر في مصيبته ، وتكون النتيجة أنهم خسروا الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : قيل في الآية تقديم وتأخير والتقدير فلا تعجبك

---

(١) انظر : البحر المحيط ٥ / ٩ .

أموالهم ولا أولادهم فِي الحياة الدُّنْيَا إنّما يريد الله ليعذبهم بِهَا فِي الآخرة وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ وروى هذا التأويل عن ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدى والفراء وابن قتيبة [١] وإليك بيان ذلك:

روى ابن أبي حاتم في تفسيره عَنْ قَتَادَةَ " فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَالَ : هَذِهِ مَقَادِيمُ الْكَلامِ ، يَقُولُ : لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الآخِرَةِ [٢] .

ورواه الطبري عنه أيضا فقال اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك : فقال بعضهم : معناه : فلا تعجبك ، يا محمد ، أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة . وقال : معنى ذلك التقديمُ ، وهو مؤخر ... عن قتادة قوله : (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) ، قال : هذه من تقاديم الكلام .. – ثم ذكر وجها آخر و رجحه في تفسير الآية عن الحسن البصرى – فقال : وقال آخرون : بل معنى ذلك : إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا، بما ألزمهم فيها من فرائضه .. عن الحسن : (إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) ، قال : بأخذ الزكاة والنفقة في سبيل الله .. قال أبو جعفر : وأولى التأويلين بالصواب في ذلك عندنا ، التأويلُ الذي ذكرنا عن الحسن . لأن ذلك هو الظاهر من التنزيل ، فصرْفُ تأويله إلى ما دلَّ عليه ظاهره ، أولى من صرفه إلى باطنٍ لا دلالةَ على صحته . وإنما وجَّه من وجَّه ذلك إلى التقديم وهو مؤخر ، لأنه لم يعرف لتعذيب الله المنافقين بأموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا ، وجهًا يوجِّهه إليه ، وقال : كيف يعذِّبهم بذلك في الدنيا ، وهي لهم فيها سرور ؟ وذهبَ عنه توجيهه إلى أنه من عظيم العذاب عليه إلزامُه ما أوجب الله عليه فيها من حقوقه وفرائضه ، إذ كان يلزمه ويؤخذ منه وهو غير طيِّب النفس ، ولا راجٍ من الله

---

(١) انظر : البحر المحيط ٥ / ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ومعاني القرآن للفراء ١ / ٤٤٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٦ / ١٨١٣ ، ط : مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية – الطبعة الثالثة ١٤١٩ هـ .

جزاءً ، ولا من الآخذ منه حمدًا ولا شكرًا ، على ضجرٍ منه وكُرْهٍ [١] .

وللإمام الرازي توجيه آخر يقضي بالإعراض عن القول بالتقديم والتأخير في الآية فقال: قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ : فِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ. وَالتَّقْدِيرُ: فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ. وَقَالَ الْقَاضِي: وَهَهُنَا سُؤَالَانِ: الْأَوَّلُ: وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: الْمَالُ وَالْوَلَدُ لَا يَكُونَانِ عَذَابًا، بَلْ هُمَا مِنْ جُمْلَةِ النِّعَمِ الَّتِي مَنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ، فَعِنْدَ هَذَا الْتَزَمَ هَؤُلَاءِ التَّقْدِيمَ وَالتَّأْخِيرَ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الِالْتِزَامَ لَا يَدْفَعُ هَذَا السُّؤَالَ. لِأَنَّهُ يُقَالُ: بَعْدَ هَذَا التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْمَالُ وَالْوَلَدُ عَذَابًا؟ فَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ تَقْدِيرِ حَذْفٍ فِي الْكَلَامِ بِأَنْ يَقُولُوا أَرَادَ التَّعْذِيبَ بِهَا مِنْ حَيْثُ كَانَتْ سَبَبًا لِلْعَذَابِ، وَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَغْنَوْا عَنِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، لِأَنَّهُ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا مِنْ حَيْثُ كَانَتْ سَبَبًا لِلْعَذَابِ، وَأَيْضًا فَلَوْ أَنَّهُ قَالَ: (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) لَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ الزِّيَادَةِ كَثِيرُ فَائِدَةٍ، لِأَنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِعْجَابَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الدُّنْيَا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ حَالُ الْعَذَابِ، فَإِنَّهَا قَدْ تَكُونُ فِي الدُّنْيَا كَمَا تَكُونُ فِي الْآخِرَةِ، فَثَبَتَ أَنَّ الْقَوْلَ بِهَذَا التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ لَيْسَ بِشَيْءٍ [٢] . والباحث يرى أن ما ذهب إليه الإمامان الطبري والرازي في عدم القول بالتقديم والتأخير في الآية هو الراجح لعدم الحاجة إليه ولاستقامة المعنى على ظاهر النظم بالتأويل المتقدم عن الحسن البصري وما فصلناه من كيفية العذاب بالأموال والأولاد في الدنيا قبل الآخرة في المعنى العام للآية .

الأنموذج الثامن : قوله تعالى : " اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ [سورة الرعد : ٢]

---

(١) جامع البيان ١٤ / ٢٩٥ إلى ٢٩٧ بتصرف .

(٢) التفسير الكبير ١٦ / ٧٢ .

المعنى العام للآية : يلفت الله تعالى نظر عباده إلى التأمل والتفكر في آياته الكونية الدالة على تفرده بالخلق والعبودية ، وأنه صاحب السلطان المطلق والعظمة الكاملة التي لا ينازعه فيها أحد من خلقه ، فقال : " اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا " أي : هذه السموات مع عظمها وسعة فضائها ليس لها عمد من تحتها ، فلو كان لها عمد ، لرأيتموها مما يدل القدرة الباهرة التي لا تتوقف على الأسباب والمسببات أو النواميس الكونية " ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ " العظيم الذي هو أعلى المخلوقات ، استواء يليق بجلاله ويناسب كماله . " وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ " لمصالح العباد ومنافعهم الدنيوية " كُلٌّ يَجْرِي " أي الشمس والقمر يسيران في حركة منظمة ومدار معلوم لا ينبغي لأحدهما أن يتقدم عنه أو يتأخر "إلى أجل مسمى" معلوم وقته لعلام الغيوب ، وقد أطلعنا على أماراته وصفاته بما يحدث لهذا الكون من تبديل وتغيير ، فتتعطل النواميس الكونية وتطوى السماوات كطي السجل للكتب ،وتبدل الأرض غير الأرض . وما يحدث للشمس من تكوير وطمس للنجوم والقمر ، إلى غير ذلك من الأهوال التي أخبرتنا بها آيات الذكر الحكيم ، وقوله " يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ " أي : يدبر أمر العالم العلوي والسفلي ، فيخلق ويرزق ، ويغني ويفقر ، ويرفع أقواما ويخفض آخرين ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويقيل العثرات ، ويفرج الكربات ، وينفذ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه ، وجرى بها قلمه ، ويرسل ملائكته الكرام للقيام بما كلفوا به من أعمال بدون تقصير أو فتور ، ويترل الكتب المقدسة على رسله الكرام بما تحتويه من شرائع محكمة وعقيدة واضحة بتفصيل واف وبيان شاف " لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ " بعد النظر في كتاب الكون الناطق بكمال قدرته ، وكتابه المسطور الدال على علمه وحكمته لعلكم توقنون بلقائه وتؤمنون بحسابه وثوابه وعقابه .

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : ذهب الحسن البصري – رحمه الله – إلى القول بالتقديم والتأخير في هذه الآية ، وتقديره رفع السموات تَرَوْنَهَا بِغَيْرِ عَمَدٍ . وذكر كثير من المفسرين تأويلا آخر بحمل الكلام على الاستئناف فيكون المعنى رفع السماوات بغير

عمد وأنتم ترونها كذلك مرفوعة بلا عمد . وإليك بيان أقوال المفسرين .

قال الإمام الرازي – رحمه الله – : أَمَّا قَوْلُهُ : تَرَوْنَها فَفِيهِ أَقْوَالٌ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ والمعنى : رفع السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ . ثُمَّ قَالَ : تَرَوْنَها أَيْ وَأَنْتُمْ تَرَوْنَهَا أَيْ مَرْفُوعَةً بِلَا عِمَادٍ . الثَّانِي : قَالَ الْحَسَنُ فِي تَقْرِيرِ الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ تَقْدِيرُهُ : رفع السموات تَرَوْنَهَا بِغَيْرِ عَمَدٍ . وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا أَمْكَنَ حَمْلُ الْكَلَامِ عَلَى ظَاهِرِهِ كَانَ الْمَصِيرُ إِلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ غَيْرَ جَائِزٍ [١] .

وبناء على ما تقدم اختلف المفسرون في السماوات هل لها عمد ولكنها غير مرئية أم لا عمد لها أصلا.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : وَقَوْلُهُ : " بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا" رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَمُجَاهِدٍ ، وَالْحَسَنِ ، وَقَتَادَةَ : أَنَّهُمْ : قَالُوا : لَهَا عَمَد وَلَكِنْ لَا تُرَى .

وَقَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ [٢] : السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلُ الْقُبَّةِ ، يَعْنِي بِلَا عَمَدٍ . وَكَذَا رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ ، وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ بِالسِّيَاقِ . وَالظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : " وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ " [الْحَجِّ : ٦٥] فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ : " تَرَوْنَهَا" تَأْكِيدًا لِنَفْيِ ذَلِكَ ، أَيْ: هِيَ مَرْفُوعَةٌ بِغَيْرِ عَمْدٍ كَمَا تَرَوْنَهَا . هَذَا هُوَ الْأَكْمَلُ فِي الْقُدْرَةِ [٣] . مما تقدم يتبين لنا أنه لا ملجئ للقول بالتقديم والتأخير في الآية ، والأولى حملها على ظاهرها .

---

(١) التفسير الكبير ١٨ / ٥٢٦ ، وانظر : فتح القدير ٣ / ٧٧ ، ط : دار ابن كثير ، دار الكلم الطيب – دمشق – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ ، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤ / ١٣٦ ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ .

(٢) إياس بن معاوية أبو واثلة المزني ، قاضي البصرة ، العلامة . روى عن : أبيه وأنس وابن المسيب وسعيد بن جبير ، وثقه : ابن معين ، توفي سنة إحدى وعشرين ومائة كهلا . سير أعلام النبلاء للذهبي ٥ / ١٥٥ ، ط : مؤسسة الرسالة – الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ٤٢٩ ، ط : دار طيبة للنشر والتوزيع – الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م .

الأنموذج التاسع : قوله تعالى : " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قيما [سورة الكهف ١ ، ٢] .

المعنى العام للآية : يحمد الله تعالى ذاته المقدسة بما هو أهله من الثناء عليه وبما استوجبته صفاته المقدسة ونعمه الظاهرة والباطنة ، الدينية والدنيوية التي لا تحصى ، وأجلها على الإطلاق إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله ﷺ فحمد ذاته وأرشد خلقه كيفية الحمد على هذه النعم ، ثم وصف كتابه الكريم بصفتين تدلان على كماله وإحكامه بنفي العوج عنه ، وإثبات أنه قيم مستقيم ، فيقتضي الصدق في أخباره ، والحكمة في أوامره ونواهيه فلا ظلم ولا عبث ، والعمل بموجب ما يحمله من إنذار للعاصين وتبشير للمؤمنين .

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : ذهب كثير من المفسرين واللغويين إلى القول بالتقديم والتأخير في الآية الكريمة والتقدير : الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا . وإليك جملة ما نقل عنهم من مرويات :

أخرج ابن أبي حاتم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما قَالَ : أنزل الْكِتَاب عدلا قيمًا ولم يجعل لَهُ عوجًا ملتسا .

وعَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قَالَ : هَذَا مِنَ التقديم والتأخير ، أنزل عَلَى عبده الْكِتَاب قيمًا ولم يجعل لَهُ عوجًا [١] .

وقال الطبري – رحمه الله – : ولا خلاف أيضا بين أهل العربية في أن معنى قوله (قيمًا) وإن كان مؤخرا ، التقديم إلى جنب الكتاب [٢] .

وإلى هذا ذهب الواحدي فقَالَ : جَمِيعُ أَهْلِ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ قَالُوا هَذَا مِنَ التَّقْدِيمِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٧ / ٢٣٤٤ .

(٢) جامع البيان ١٧ / ٥٩٢ .

وَالتَّأْخِيرِ وَالتَّقْدِيرُ : أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ قَيِّمًا وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا [١] .

قال الرازي معقبا على قول الواحدي : وَأَقُولُ قَدْ بَيَّنَّا مَا يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ هَذَا الْكَلَامِ لِأَنَّا بَيَّنَّا أَنَّ قَوْلَهُ : وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ كَامِلًا فِي ذَاتِهِ ، وَقَوْلَهُ : قَيِّماً يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ مُكَمِّلًا لِغَيْرِهِ وَكَوْنُهُ كَامِلًا فِي ذَاتِهِ مُتَقَدِّمٌ بِالطَّبْعِ عَلَى كَوْنِهِ مُكَمِّلًا لِغَيْرِهِ فَثَبَتَ بِالْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ أَنَّ التَّرْتِيبَ الصَّحِيحَ هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ قَوْلُهُ : وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً فَظَهَرَ أَنَّ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فَاسِدٌ يَمْتَنِعُ الْعَقْلُ مِنَ الذَّهَابِ إِلَيْهِ [٢] .

وحكى أبو جعفر النحاس القول بالتقديم والتأخير عن بعض أئمة اللغة فقال : زعم الأخفش سعيد والكسائي والفراء وأبو عبيد أن في أول هذه السورة تقديما وتأخيرا ، وأن المعنى : الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا [٣] .

وذكر صاحب البحر المحيط تعقيب الرازي المتقدم على القائلين بالتقديم والتأخير في الآية فقال : " وقَالَ الْعَسْكَرِيُّ : فِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ كَأَنَّهُ قَالَ : احْمِدُوا اللَّهَ عَلَى إِنْزَالِ الْقُرْآنِ قَيِّماً لَا عِوَجَ فِيهِ ، وَمِنْ عَادَةِ الْبُلَغَاءِ أَنْ يُقَدِّمُوا الْأَهَمَّ . وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِيُّ : وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ مُكَمَّلًا فِي ذَاتِهِ . وَقَوْلُهُ قَيِّمًا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ مُكَمِّلًا لغَيْرِهِ ، فَثَبَتَ بِالْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ أَنَّ التَّرْتِيبَ الصَّحِيحَ هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ ، وَأَنَّ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فَاسِدٌ يَمْتَنِعُ الْعَقْلُ مِنَ الذَّهَابِ إِلَيْهِ . وَقَالَ الْكَرْمَانِيُّ : إِذَا جَعَلْتَهُ حَالًا وَهُوَ الْأَظْهَرُ فَلَيْسَ فِيهِ تَقْدِيمٌ وَلَا تَأْخِيرٌ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُمَا حَالَانِ مِنَ الْكِتَابَ الْأُولَى جُمْلَةٌ وَالثَّانِيَةُ مُفْرَدٌ انْتَهَى [٤] .

---

(١) التفسير البسيط للواحدي ١٣ / ٥٢٠ ، ط : سلسلة الرسائل العلمية – جامعة الإمام محمد بن سعود – الرياض .

(٢) التفسير الكبير ٢١ / ٤٢٣ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢ / ٢٨٨ .

(٤) البحر المحيط ٧ / ١٣٥ ، ١٣٦ .

مع كثرة النقل عن القائلين بالتقديم والتأخير في الآية ؛ إلا أن الأولى حمل الكلام على ظاهره ونسقه لأن نفى العوج عنه – كما ذكر الرازي – يدل على كماله في ذاته ووصفه بالقيم يدل على أنه مُكَمِّلًا لِغَيْرِهِ، والكمال في الذات مقدم على إكمال الغير .

الأنموذج العاشر: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى [طه : ١٢٩]

المعنى العام للآية : في هذه الآية تسلية للرسول ﷺ وتصبير له بعدم تعجيل عقوبة هؤلاء المكذبين الضالين ، وأن كفرهم وتكذيبهم يقتضي حلول العذاب بهم ولزومه لهم ، ولكن الذي أخره عنهم سبق كلمة ربك بإمهالهم وتأخيرهم ، وأجل مسمى معلوم عند ربك سماه لهم في أمّ الكتاب وخطه فيه ، فهم بالغوه ومستوفوه ، فلولا ذلك لَكَانَ الهلاك لِزَامًا لهم وعاجلتهم العقوبة الدنيوية ، ولكن إمهالهم لما سبقت به المشيئة وخط به القلم فلعلهم يراجعون أمر الله ويتركون ما عليه من كفر وإعراض، ويدخل الإيمان قلوبهم فيتوب الله عليهم .

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : ذهب كثير من المفسرين والمعربين إلى أن قوله تعالى : " وأجل مسمى " معطوف على قوله : "كلمة" فيكون في الكلام تقديم وتأخير والتقدير : ولولا كلمة وأجل مُسمى لكان لِزامًا . وإليك بيان ذلك :

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة : قَالَ : هَذَا مِنْ مقاديم الكلام يَقُولُ : لولا كلمة مِنْ ربك وأجل مسمى لكان لزاما . وعَنِ السُّدِّيِّ فِي قوله : وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ من ربك لكان لِزَامًا قَالَ : لكان أخذ أو لكنا أخرناهم إلى يَوْم بدر وهو اللزوم وتفسيرها وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى لكان لزاما ، ولكنه تقديم وتأخير في الكلام [١] .

وممن قال بذلك من أئمة اللغة الفراء وابن فارس ، قال الفراء : "يريد ولولا كلمة

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٧ / ٢٤٤١ .

وأجل مُسمى لكان لِزامًا مقدم ومؤخر وهو– فيما ذكروا– ما نزل بهم فِي وقعة بدر من القتل [١] .

وقال ابن فارس : " وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى " فأجَلٌ معطوف على كلمةٌ ، التأويل : ولولا كلمة سبقت من ربّك وأجَلٌ مسمّىً – أرادَ الأجَل المضروبَ لهم وهي الساعة – لكان العذاب لازماً لهم [٢] .

وإلى هذا ذهب الإمام الرازي وقطع به فقال : وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى وَفِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ ، وَالتَّقْدِيرُ : وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ وَأَجَلٌ مُسَمًّى لَكَانَ لِزَامًا [٣] .

واستظهره أبو حيان بجعل " أجل مسمى " معطوف على " كلمة " وإن لم يصرح بالتقديم والتأخير فقال : وَالظَّاهِرُ عَطْفَ وَأَجَلٌ مُسَمًّى عَلَى كَلِمَةٍ وَأَخَّرَ الْمَعْطُوفَ عَنِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ ، وَفَصَلَ بَيْنَهُمَا بِجَوَابِ لَوْلا لِمُرَاعَاةِ الْفَوَاصِلِ وَرُؤُوسِ الْآيِ ، وَأَجَازَ الزَّمَخْشَرِيُّ أَنْ يَكُونَ وَأَجَلٌ مَعْطُوفًا عَلَى الضَّمِيرِ الْمُسْتَكِنِ فِي كَانَ قَالَ أَيْ لَكانَ الْأَخْذُ الْعَاجِلُ وَأَجَلٌ مُسَمًّى لَازِمَيْنِ لَهُ كَمَا كَانَا لَازِمَيْنِ لِعَادٍ وَثَمُودَ ، وَلَمْ يَنْفَرِدِ الْأَجَلُ الْمُسَمَّى دُونَ الْأَخْذِ الْعَاجِلِ انتهى [٤] . فالقول بالتقديم والتأخير في الآية سلم من المأخذ والاعتراض فبانت صحته ويحمل الكلام عليه وَالتَّقْدِيرُ : وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ وَأَجَلٌ مُسَمًّى لَكَانَ لِزَامًا .

الأنموذج الحادي عشر : قوله تعالى : وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ [سورة النور : ١٦]

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢ / ١٩٥ .

(٢) الصاحبي في فقه اللغة ص ١٩٠ ، ط : محمد علي بيضون – الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م .

(٣) التفسير الكبير ٢٢ / ١١٢ ، وانظر : معالم التنزيل ٥ / ٣٠٢ .

(٤) البحر المحيط ٧ / ٣٩٧ .

المعنى العام : سيقت هذه الآية تعقيبا على حادثة الإفك وتحضيضا لما ينبغي قوله عند سماع مقالة السوء عن مسلم فضلا عن أزوج أشرف الخلق وأمهات المؤمنين الطاهرات فقال : " ولولا إذ سمعتموه " أي هذا الإفك والبهتان " قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا " إذ هذا مما لا يصح صدوره من مؤمن لعظم شأنه وخطورة الخوض فيه . وقلتم متعجبين من مثله كيف يقع " سبحانك" ربنا " هذا بهتان عظيم " إشارة إلى الإفك ووصفه الله بالبهتان أي الكذب العظيم الذى تتحير فيه العقول وتندهش لفظاعته وغرابته وخروجه عن المعقول لما رموا به الطاهرة الحصان الرزان المبرأة من كل عيب أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – وصحابيا جليلا لا يعلم عنه الرسول ﷺ إلا كل خير .

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : تقدير الكلام : لولا قلتم ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ إذ سمعتموه ، ففصل بين لولا وقلتم بظرف الزمان إذ سمعتموه أي وقت سمعهم للمبادرة إلى إنكار ووئد الفتنة في مهدها فلا يتركون فرصة للقيل والقال من كل أفاك أثيم .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف جاز الفصل بين لولا وقلتم؟ قلت : للظروف شأن وهو تنزلها من الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها وأنها لا تنفك عنها، فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها . فإن قلت : فأىّ فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلا ؟ قلت : الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أوّل ما سمعوا بالإفك عن التكلم به ، فلما كان ذكر الوقت أهمّ وجب التقديم [١] .

وبمثل هذا قال الرازي – رحمه الله – فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ جَازَ الْفَصْلُ بَيْنَ لَوْلَا وَبَيْنَ قُلْتُمْ بِالظَّرْفِ ؟ قُلْنَا الْفَائِدَةُ فِيهِ أَنَّهُ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْتَرِزُوا أَوَّلَ مَا سَمِعُوا بِالْإِفْكِ عَنِ التَّكَلُّمِ بِهِ [٢] .

---

(١) الكشاف ٣ / ٢٢٠ .

(٢) التفسير الكبير ٢٣ / ٣٤٣ .

وقال العلامة ابن عاشور : وَتَقْدِيمُ الظَّرْفِ وَهُوَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ عَلَى عَامِلِهِ وَهُوَ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنا كَتَقْدِيمِ نَظِيرِهِ فِي قَوْلِهِ: لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ [النُّور : ١٢] إِلَخْ وَهُوَ الِاهْتِمَامُ بِمَدْلُولِ الظَّرْفِ (١) .

فالتقديم هنا وقع لما ترتب عليه من فائدة هامة وهي بيان انه كان من الواجب أن يتنزهوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهم أوجب التقديم .

الأنموذج الثاني عشر: قوله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [سورة الروم : ٥٦] .

المعنى العام للآية : ذكرت هذه الآية في سياق الحديث عن تقرير عقيدة البعث فقال جل ذكره "وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ" أي: الذين مَنَّ الله عليهم بهاتين النعمتين والتزموا بها قولا وعملا حتى صارتا وصفا لهم فالعلم بالحق والإيمان المستلزم إيثار الحق يقضي بمطابقة قولهم للواقع وهو عين الحق قالوا : " لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ " أي : في قضائه وقدره ، الذي كتبه الله عليكم وفي حكمه " إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فهذا الوقت الذي قضيتموه في الدنيا كافيا للتدبر والاعتبار والإيمان بالله وما أخبر به من البعث والحساب ولكن تماديتم في الإعراض والتكذيب حتى وقع ما كذبتم به "فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ" لجهلكم وغيكم فحينئذ لا تنفع المعذرة والندم فقد مضى وقتها وبقيت الحسرة وسوء المصير .

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : يرى قتادة – رحمه الله – أن في الآية تقديم وتأخير والتقدير: أُوتُوا الْعِلْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَالْإِيمَانَ . لَقَدْ لَبِثْتُمْ .

أخرج ابن جرير بسنده عن قَتادة قوله : (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ) قال : هذا من مقاديم الكلام. وتأويلها : وقال

(١) التحرير والتنوير ١٨ / ١٧٩ ، ط : الدار التونسية .

الذين أوتوا الإيمان والعلم: لقد لبثتم في كتاب الله .

وذُكر عن ابن جُرَيج أنه كان يقول : معنى ذلك : وقال الذين أوتوا العلم بكتاب الله ، والإيمان بالله وكتابه [١] .

وروى ابن أبي حاتم عن قتادة : وَقَالَ الذين أوتوا العلم الآية . قال : هذا من تفاديهم الكلام ، وتأويلها : وقال الذين أوتوا الإيمان والعلم في كتاب الله : لقد لبثتم إلى يوم البعث [٢] .

ونسب هذا القول الْوَاحِدِيُّ للمفسرين فقال : وَالْمُفَسِّرُونَ حَمَلُوا هَذَا عَلَى التَّقْدِيمِ ، وَالتَّأْخِيرِ عَلَى تَقْدِيرِ : وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَكَانَ رَدُّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ عَلَيْهِمْ بِالْيَمِينِ لِلتَّأْكِيدِ، أَوْ لِلْمُقَابَلَةِ لِلْيَمِينِ بِالْيَمِينِ ، ثم نبههم على طريقة التبكيت بأن فَهذا الْوَقْتَ الَّذِي صَارُوا فِيهِ هُوَ يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ ، بَلْ كُنْتُمْ تَسْتَعْجِلُونَهُ تَكْذِيبًا وَاسْتِهْزَاءً فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ أَيْ : لَا يَنْفَعُهُمُ الِاعْتِذَارُ يَوْمَئِذٍ ، وَلَا يُفِيدُهُمْ عِلْمُهُمْ بِالْقِيَامَةِ [٣] .

وشكك أبو حيان في نسبة هذا القول لقتادة وامتناع صدوره منه فقال: وَقَالَ قَتَادَةُ : هُوَ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ، تَقْدِيرُهُ : أُوتُوا الْعِلْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَالْإِيمَانَ . لَقَدْ لَبِثْتُمْ : وَعَلَى هَذَا تَكُونُ فِي بِمَعْنَى الْبَاءِ ، أَيِ الْعِلْمُ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَلَعَلَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يَصِحُّ عَنْ قَتَادَةَ ، فَإِنَّ فِيهِ تَفْكِيكًا لِلنَّظْمِ لَا يَسُوغُ فِي كَلَامٍ غَيْرِ فَصِيحٍ ، فَكَيْفَ يَسُوغُ فِي كَلَامِ اللَّهِ ؟ وَكَانَ قَتَادَةُ مَوْصُوفًا بِعِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَلَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِثْلُ هَذَا القول [٤] أقول – والله أعلم – حمل الكلام على نسقه أولى لاستقامة المعنى عليه ، وعدم ترتب

---

(١) جامع البيان ٢٠ / ١١٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٩ / ٣٠٩٤ .

(٣) انظر : البسيط في التفسير ١٨ / ٨٦ ، وفتح القدير ٤ / ٢٦٧ .

(٤) البحر المحيط ٨ / ٤٠٢ .

كبير فائدة على القول بالتقديم والتأخير في هذا الموضع .

الأنموذج الثالث عشر : قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ .... [سورة الأحزاب : ٥٣] .

المعنى العام للآية : اشتملت هذه الآية الكريمة على جملة من الآداب التي ينبغي على المسلمين أن يتحلوا بها عند دخول بيوت النبي ﷺ : وأول هذه الآداب : عدم الدخول إلا بإذنه .

وثانيها : إذا دعوا إلى طعام فلا يجلسوا إلا بمقدار الحاجة فلا يمكثوا وقتا طويلا قبله منتظرين إناه أي طهيه ونضجه ولا بعده متسامرين بالحديث ففي ذلك إيذاء للنبي وتعطيل له عن مهامه وأعماله .

ثالثها : الأدب في الحديث مع أزواجه الطاهرات عند سؤالهن متاعا من آنية الطهى وغيرها فلا يكون ذلك إلا من وراء حجاب أي ساتر يمنع من النظر إليهن فذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن من وساوس الشيطان وأسلم من الريبة

رابعها : تحريم إيذاء النبي ﷺ بأي شكل من أشكال الإيذاء ، وتحريم النكاح من أزواجه من بعده فهن أمهات للمؤمنين محرمات عليهم تحريما أبديا وذلك تعظيم لسيد الأولين والآخرين.

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : ذهب البعض إلى القول بالتقديم والتأخير في نظم الآية والتقدير : ويَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَى طَعَامٍ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ، وعلى هذا يختص المنع بالدخول إلى الطعام بغير إذن ، وهذا لا ينفي المنع من الدخول لغرض آخر بغير إذن .

وقد ذكر الإمام الرازي وجهين لتأويل الآية فقال : الْأُولَى : قَوْلُهُ : إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ

لَكُمْ إِلى طَعامٍ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ تَقْدِيرُهُ وَلَا تَدْخُلُوا إِلَى طَعَامٍ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ، فَلَا يَكُونُ مَنْعًا مِنَ الدُّخُولِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الطَّعَامِ بِغَيْرِ الْإِذْنِ ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ فَيَكُونُ مَعْنَاهُ وَلَا تَدْخُلُوا إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ فَيَكُونُ الْإِذْنُ مَشْرُوطًا بِكَوْنِهِ إِلَى الطَّعَامِ فَإِنْ لَمْ يُؤْذَنْ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ فَلَا يَجُوزُ الدُّخُولُ فَلَوْ أَذِنَ لِوَاحِدٍ فِي الدُّخُولِ لِاسْتِمَاعِ كَلَامٍ لَا لِأَكْلِ طَعَامٍ لَا يَجُوزُ ، نَقُولُ الْمُرَادُ هُوَ الثَّانِي لِيَعُمَّ النَّهْيَ عَنِ الدُّخُولِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ فَلَا يَجُوزُ إِلَّا بِالْإِذْنِ الَّذِي إِلَى طَعَامٍ ... وَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ الْمُرَادُ هُوَ الثَّانِي لِأَنَّ التَّقْدِيمَ وَالتَّأْخِيرَ خِلَافُ الْأَصْلِ وَقَوْلُهُ : إِلى طَعامٍ مِنْ بَابِ التَّخْصِيصِ بِالذِّكْرِ فَلَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ مَا عَدَاهُ ، لَا سِيَّمَا إِذَا عَلِمَ أَنَّ غَيْرَهُ مِثْلُهُ فَإِنَّ مَنْ جَازَ دُخُولُ بَيْتِهِ بِإِذْنِهِ إِلَى طَعَامِهِ جَازَ دُخُولُهُ إِلَى غَيْرِ طَعَامِهِ بِإِذْنِهِ ، فَإِنَّ غَيْرَ الطَّعَامِ مُمْكِنٌ وُجُودُهُ مَعَ الطَّعَامِ ، فإن من الجائز أن يتكلم معه وقت ما يَدْعُوهُ إِلَى طَعَامٍ وَيَسْتَقْضِيهِ فِي حَوَائِجِهِ وَيُعَلِّمُهُ مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ الْعُلُومِ مَعَ زِيَادَةِ الْإِطْعَامِ، فَإِذَا رَضِيَ بِالْكُلِّ فَرِضَاهُ بِالْبَعْضِ أَقْرَبُ إِلَى الْفِعْلِ فَيَصِيرُ مِنْ بَابِ فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ [الْإِسْرَاءِ : ٢٣] (١) .

قال الإمام الشوكاني – رحمه الله – معقبا على تعبير الرازي المتقدم فقال : وَالْأَوْلَى فِي التَّعْبِيرِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ أَنْ يُقَالَ : قَدْ دَلَّتِ الْأَدِلَّةُ عَلَى جَوَازِ دُخُولِ بُيُوتِهِ ﷺ بِإِذْنِهِ لِغَيْرِ الطَّعَامِ ، وَذَلِكَ مَعْلُومٌ لَا شَكَّ فِيهِ ، فَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ وَغَيْرُهُمْ يَسْتَأْذِنُونَ عَلَيْهِ لِغَيْرِ الطَّعَامِ فَيَأْذَنُ لَهُمْ ، وَذَلِكَ يُوجِبُ قصر هذه الآية على السبب الذين نزلت فيه ، وهو القوم الذي كَانُوا يَتَحَيَّنُونَ طَعَامَ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُونَ وَيَقْعُدُونَ مُنْتَظِرِينَ لِإِدْرَاكِهِ ، وَأَمْثَالُهُمْ ، فَلَا تَدُلُّ عَلَى الْمَنْعِ مِنَ الدُّخُولِ مَعَ الْإِذْنِ لِغَيْرِ ذَلِكَ ، وَإِلَّا لَمَا جَازَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدْخُلَ بُيُوتَهُ بِإِذْنِهِ، لِغَيْرِ الطَّعَامِ ، وَاللَّازِمُ بَاطِلٌ فَالْمَلْزُومُ مِثْلُهُ (٢) .

---

(١) التفسير الكبير ٢٥ / ١٧٩ .

(٢) فتح القدير ٤ / ٣٤٢ ، وانظر :اللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٥ / ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت .

فأولى التأولين بالقبول حمل الآية على ظاهرها من غير تقديم ولا تأخير فلا يختص الإذن بالدخول بالطعام وحده بل يعم كل ما عداه .

الأنموذج الرابع عشر : قال تعالى : احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ [الصافات الآيات ٢٢ – ٢٤]

المعنى العام للآيات : ذكرت هذه الآيات في سياق الحديث عن عرصات القيامة وما يحدث فيه من سؤال المكذبين له وتوبيخهم بعد معاينتهم له فقال جل ذكره : " هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ " أي احشروا الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي ، و" وَأَزْوَاجَهُمْ " أي الذين من جنس عملهم ، كل يضم إلى من يجانسه في العمل . " وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ" من الأصنام والأوثان . وقوله تعالى : " فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ " يقول الله ﷻ فاهدوهم أي دلوهم إلى طريق النار وهذا من باب التهكم والسخرية بهم فالهداية تكون لما فيه نفع وخير لصاحبه والمراد بها هنا السوق العنيف إلى جهنم كما قال تعالى: "وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا" [سورة مريم آية٨٦] ويأمر الجبار ملائكته بتوقيفهم للسؤال ليظهر لهم خزيهم وافتقاد الناصر والشفيع فتزداد الحسرة والذلة فقال : "وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ" ثم يسألون "مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ " أي لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا. "بل هم اليوم مستسلمون" أي منقادون ذليلون .

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : ذهب البعض إلى تقدم السؤال على الهداية فيكون التقدير : قفوهم إنهم مسؤلون فاهدوهم إلى صراط الجحيم .

فذكر الإمام الرازي تأويلين للآية فقال : وَفِي الْآيَةِ قَوْلَانِ أَحَدُهُمَا : عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَالْمَعْنَى قِفُوهُمْ وَاهْدُوهُمْ ، وَالْأَصْوَبُ أَنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ ، بَلْ كَأَنَّهُ قِيلَ : فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ فَإِذَا انْتَهَوْا إِلَى الصِّرَاطِ قِيلَ وَقِفُوهُمْ فَإِنَّ السؤال يقع هناك

وقوله : إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ قِيلَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَأَقْوَالِهِمْ ، وَقِيلَ الْمُرَادُ سَأَلَتْهُمُ الْخَزَنَةُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ... قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ [الزُّمَر : ٧١] وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا السُّؤَالُ مَا ذُكِرَ بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : مَا لَكُمْ لَا تَناصَرُونَ أَيْ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ تَوْبِيخًا لَهُمْ ، فَيُقَالُ: مَا لَكُمْ لَا تَناصَرُونَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : لَا يَنْصُرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا كَمَا كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ : نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ فَقِيلَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مالكم غَيْرَ مُتَنَاصِرِينَ ، وَقِيلَ يُقَالُ لِلْكُفَّارِ مَا لِشُرَكَائِكُمْ لَا يَمْنَعُونَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ [١] .

وذكر الإمام الماوردى الحكمة من تأخر السؤال بعد هدايتهم إلى الجحيم فقال : فإن قيل : فهلا كانوا مسئولين قبل قوله " فاهْدوهم ... " الآية ؟ قيل : لأن هذا توبيخ وتقريع فكان نوعاً من العذاب فلذلك صار بعد الأمر بالعذاب [٢] .

وذكر الإمام الألوسي وجوها في موقف الحبس للسؤال فقال : وظاهر الآية أن الحبس للسؤال بعد هدايتهم إلى صراط الجحيم بمعنى تعريفهم إياه ودلالتهم عليه لا بمعنى ادخالهم فيه وإيصالهم إليه ، وجوز أن يكون صراط الجحيم طريقهم له من قبورهم إلى مقرهم وهو ممتد فيجوز كون الوقف في بعض منه مؤخرا عن بعض ، وفيه من البعد ما فيه ، وقيل : إن الوقف للسؤال قبل الأمر المذكور والواو لا تقتضي الترتيب ، وقيل الوقف بعد الأمر عند مجيئهم النار والسؤال عما ينطق به [٣] .

والأولى حمل الآية على ظاهرها وأن السؤال يكون بعد هدايتهم للجحيم لأن تعيين موقف السؤال من الغيبيات التي لا يجوز القول فيها إلا بدليل وقد دل ظاهر الآية على تعيينه بعد الهداية فلا يعدل عنه إلى غيره إلا بدليل ولا دليل هنا فتعين القول بظاهر

---

(١) التفسير الكبير ٢٦ / ٣٢٩ .

(٢) النكت والعيون للماوردي ٥ / ٤٢ ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

(٣) روح المعاني ١٢ / ٧٨ دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ .

النظم ولا حاجة إلى التقديم والتأخير .

الأنموذج الخامس عشر : قوله تعالى : (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ [سورة ص آية٢٦]

المعنى العام للآية : ذكرت هذه الآية في تمام الحديث عن نبأ الخصم مع – داود عليه السلام – ، واشتملت على جملة الأصول والقواعد الواجبة على من يقوم بحق الاستخلاف في الأرض والحكم بين الخلق ، فجاء النداء لنبي الله داود وخليفته في الأرض بتذكيره بهذه المهمة ومتطلباتها فقال جل ذكره : يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ – فاشتملت الآية على أمر ونهى هما ميزان الحكم . أما الأمر فقوله تعالى : " فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ " أي فاقض بين الناس بالعدل الذي قامت به السموات والأرض . وهذه أولى وأهم قواعد الحكم . وأما النهي فقوله تعالى : وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى أي لا تمل في الحكم مع أهواء نفسك أو بسبب مطامع الدنيا ، فإن اتباع الهوى مزلقة ومدعاة إلى النار ، لذا قال : فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي إن اتباع الهوى سبب في الوقوع في الضلال والانحراف عن جادة الحق، وما عاقبته إلا الخذلان ، فقال تعالى : أي : إن الذين يحيدون عن طريق الحق والعدل ، لهم عقاب شديد يوم القيامة

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : ذهب بعض المفسرين إلى القول بالتقديم والتأخير في تذييل الآية والتقدير : وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمِ الْحِسَابِ بِمَا نَسُوا . واختار الطبري هذا التأول وعزاه إلى عكرمة . فقال : يقول تعالى ذكره : إن الذين يميلون عن سبيل الله ، وذلك الحقّ الذي شرعه لعباده ، وأمرهم بالعمل به ، فيجورون عنه في الدنيا ، لهم في الآخرة يوم الحساب عذاب شديد على ضلالهم عن سبيل الله بما نسوا أمر الله ، يقول : بما تركوا القضاء بالعدل ، والعمل بطاعة الله (يَوْمِ الْحِسَابِ) من صلة العذاب الشديد . – ثم أخرج بسنده – عن عكرمة ، في قوله (عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ

الْحِسَاب) قال : هذا من التقديم والتأخير ، يقول : لهم يوم الحساب عذاب شديد بما نسوا [١] .

وذكر الزجاج – رحمه الله – تأويلا للآية على ظاهرها فقال : (بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَاب) . أي بتركهم العَمَل لهذا اليومِ صاروا بمنزلة الناسين ، وإن كانوا يُنْذَرُونَ ويُذَكَّرُونَ [٢] .

وقال ابن عادل الحنبلي – رحمه الله – قيل : معناه بما تركوا الإيمان بيوم الحساب . وقال الزجاج : بتركهم العمل ذلك اليوم ، وقال عكرمة والسدي : في الآية تقديم وتأخير تقديره لهم عذاب شديد يَوْم الحساب بما نسوا أي تركوا القضاء بالعدل [٣] .

ورجح الشوكاني – رحمه الله – تأويل الزجاج المتقدم فقال : وَالْبَاءُ فِي بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ لِلسَّبَبِيَّةِ ، وَمَعْنَى النِّسْيَانِ التَّرْكُ : أَيْ : بِسَبَبِ تَرْكِهِمُ الْعَمَلَ لِذَلِكَ الْيَوْمِ : قَالَ الزَّجَّاجُ : أَيْ بِتَرْكِهِمُ الْعَمَلَ لِذَلِكَ الْيَوْمِ صَارُوا بِمَنْزِلَةِ النَّاسِينَ وَإِنْ كَانُوا يُنْذَرُونَ وَيُذَكَّرُونَ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَالسُّدِّيُّ : فِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ ، وَالتَّقْدِيرُ : وَلَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الْحِسَابِ بِمَا نَسُوا، أَيْ : تَرَكُوا الْقَضَاءَ بِالْعَدْلِ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى [٤] .

وترجيح الشوكاني يوافق ظاهر النظم ويستقيم عليه المعنى ، فهو أول بالقبول ولا ضرورة للقول بالتقديم والتأخير هنا .

الأنموذج السادس عشر : قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ [غافر : ١٠]

المعنى العام للآية : بعد بيان حال السعداء وأنهم هم وأزواجهم في دار النعيم

---

(١) جامع البيان ٢١ / ١٨٩ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤ / ٣٢٩ .

(٣) اللباب في علوم الكتاب ١٦ / ٤١٠ .

(٤) فتح القدير ٤ / ٤٩٣ .

ودعاء الملائكة لهم في الآيات السابقة. أعقبه في هذه الآية وما بعدها بحال الأشقياء في النار على عادة الأسلوب القرآني في الجمع بين الترغيب والترهيب ، فقال تعالى مخبراً عن أهل النار : " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا " أي بربهم ولقائه وتوحيده ينادون أي تناديهم الملائكة فتقول لهم – بعد أن يأخذوا في مقت أنفسهم ولعن بعضهم بعضاً – " لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ " وذلك لأنكم كنتم تدعون إلى الإيمان بالله وتوحيده وطاعته فتكفرون وتجحدون متكبرين .

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : اشتملت الآية على أسلوبي الحذف والتقديم والتأخير والتقدير : لمقت الله إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم ، فحذف مفعول المقت الأول " إياكم " وقدم قوله " أكبر من مقتكم أنفسكم " على الظرف " إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون " وبهذا قال جماعة من اللغويين والمفسرين .

قال ابن فارس رحمه الله – : " ومن ذلك قوله جلّ ثناؤه : " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ " تأويله : لَمَقْتُ الله إياكم في الدنيا حينَ دُعيتم إلى الإيمان فكفرتم، ومقته إياكم اليوم أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم إذا دعيتم إلى الحساب وعند ندمِكم على ما كان منكم [١] .

وتبعه الواحدي والرازي في ذلك ، قال الواحدي : وفى الآية حذف وتقديم فالحذف هو مفعول المقت الأول لأن التقدير لمقت الله إياكم والتقديم هو أن تقول قوله : (أكبر من مقتكم) قدم على الظرف المتعلق بالمقت الأول والتقدير لمقت الله إياكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم [٢] .

فالقول بالتقديم والتأخير في الآية ظاهر بالإعراب ولم ينازع فيه أحد وعليه يحمل معنى الآية .

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة ص ١٩٠ .

(٢) التفسير البسيط للواحدي ١٩ / ٣٦٣ ، وانظر: التفسير الكبير للرازي ٢٧ / ٤٩٣ .

الأنموذج السابع عشر: قوله تعالى : "وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [سورة المجادلة آية ٣] .

المعنى العام للآية : تتابع الآيات في الحديث عن المجادلة وأحكام الظهار فقال جل ذكره : " والذين يظاهرون من نسائهم " : أي بأن يقول لها أنت علي كظهر أمي أو أختي ونحوها من المحارم . " ثم يعودون لما قالوا" أي يعزمون على العودة للتي ظاهروا منها، إذ كان الظهار في الجاهلية طلاقاً . " فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا " أي فالواجب عليه تحرير رقبة مؤمنة قبل أن يجامعها . "ذلكم توعظون به " : أي تأمرون به فافعلوه على سبيل الوجوب . ثم تتوالى الآيات في بيان كفارة الظهار فمن لم يجد رقبة لفقدها أو عدم القدرة على شرائها فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يجامع زوجته ، فمن لم يستطع لمرض أو لكبر سن فإطعام ستين مسكينا ، وهذه حدود الله وشرائعه التي يجب على المؤمنين بالله ورسوله أن يقفوا عندها ولا يتعدوها ، فمن كفر بها وتعداها فمصيره العذاب الأليم .

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : ذهب الأخفش ومن تبعه من نحوى البصرة إلى القول بالتقديم والتأخير في الآية والتقدير والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة ثم يعودون لما قالوا ، والمعنى عليه يكون العود في الظهار مرة ثانية بعد الكفارة المذكورة ، وقيل العود للوطء بعد التحريم بالظهار وإليك تفصيل ذلك :

قال الإمام الطبري : واختلف أهل العربية في معنى ذلك ، فقال بعض نحويي البصرة في ذلك المعنى : فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، فمن لم يجد فصيام ، فإطعام ستين مسكينًا ، ثم يعودون لما قالوا : إنا لا نفعله ، فيفعلونه هذا الظهار ، يقول : هي عليّ كظهر أمي ، وما أشبه هذا من الكلام ، فإذا أعتق رقبة ، أو أطعم ستين مسكينًا ، عاد لما قد قال : هو عليّ حرام يفعله . وكأن قائل هذا القول كان يرى أن هذا من المقدّم الذي معناه التأخير .

وقال بعض نحويي الكوفة (ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا) يصلح فيها في العربية : ثم يعودون إلى ما قالوا ، وفيما قالوا ، يريدون النكاح ، يريد : يرجعون عما قالوا ، وفي نقض ما قالوا ، قال : ويجوز في العربية أن تقول : إن عاد لما فعل ، تريد إن فعل مرّة أخرى، ويجوز إن عاد لما فعل: إن نقض ما فعل، وهو كما تقول: حلف أن يضربك ، فيكون معناه : حلف لا يضربك ، وحلف ليضربنك .

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: معنى اللام في قوله: (لِمَا قَالُوا) بمعنى إلى أو في ، لأن معنى الكلام : ثم يعودون لنقض ما قالوا من التحريم فيحللونه ، وإن قيل معناه : ثم يعودون إلى تحليل ما حرّموا ، أو في تحليل ما حرّموا فصواب ، لأن كلّ ذلك عود له ، فتأويل الكلام : ثم يعودون لتحليل ما حرّموا على أنفسهم مما أحله الله لهم [١] .

وذكر القرافي من المالكية : فائدة فقهية مستنبطة من أسلوب التقديم والتأخير في الآية وهو كون العود لا يكون شرطا في كفارة الظهار فقال : والتقديم والتأخير : كقوله تعالى « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة الآية ، فظاهرها أنه لا تجب الكفارة إلا بالوصفين المذكورين قبلها وهما الظهار والعود ؛ وقيل فيها تقديم وتأخير تقديره والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة ثم يعودون لما كانوا من قبل الظهار سالمين من الإثم بسبب الكفارة ، وعلى هذا لا يكون العود شرطاً في كفارة الظهار [٢] .

وزعم صاحب البحر فساد التقديم والتأخير لنظم الآية فقال : وَقَالَ الْأَخْفَشُ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، وَالتَّقْدِيرُ: فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ لِمَا قَالُوا ، وَهَذَا قَوْلٌ لَيْسَ بِشَيْءٍ لِأَنَّهُ يُفْسِدُ نَظْمَ

---

(١) جامع البيان ٢٣ / ٢٣٠ .

(٢) شرح تنقيح الفصول للقرافى . شركة الطباعة الفنية المتحدة – الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد .

الْآيَةِ [١] .

وعقب على ذلك تلميذه السمين الحلبي فقال: إنَّ اللامَ تتعلَّقُ بـــ « تحرير » . وفي الكلامَ تقديمٌ وتأخيرٌ . والتقدير: والذين يُظاهرون مِنْ نسائِهم فعليهم تحريرُ رقبةٍ ؛ لِما نَطقوا به من الظِّهار ثم يعودُون للوَطْءِ بعد ذلك . وهذا ما نقله مكيٌّ وغيرُه عن أبي الحسن الأخفش . قال الشيخ : « وليس بشيءٍ لأنه يُفْسِدُ نَظْمَ الآية » . وفيه نظرٌ . لا نُسَلِّم فسادَ النظمِ مع دلالةِ المعنى على التقديمِ والتأخير ، ولكنْ نُسَلِّم أنَّ ادعاءَ التقديمِ والتأخيرِ لا حاجةَ إليه ؛ لأنه خلافُ الأصل [٢] .

والذى أراه أن ما ذهب إليه نحاة الكوفة من أن المعنى " ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا " ثم يعودون إلى ما قالوا ، أو فيما قالوا يريدون النكاح أو التحليل قبل التحريم بالظهار هو الأولى لموافقته لظاهر النظم ولا حاجة لأسلوب التقديم والتأخير وإن كان المعنى عليه جائز والله أعلم .

الأنموذج الثامن عشر : قوله تعالى : " إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ " [سورة الانشقاق الآيات ١ – ٦]

المعنى العام للآيات : يخبر تعالى بما يحدث من أهوال في يوم القيامة ، ومنها انشقاق السماء أي تصدعها وانفطارها " وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ " أي وسمعت لأمر ربها واستجابت فكانت كما أمرها الله أن تكون منشقة منفطرة " وَإِذَا الْأَرْض مُدَّتْ " أي اتسعت رقعتها وزال ما عليها من الجبال والتلال والهضاب والمباني والعمارات وأصبحت مستوية فضاء فسيحا " وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا " أي ما في بطنها من الأموات " وَتَخَلَّتْ " عنه أي عما كان في بطنها ، " وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا " في ذلك كله أي سمعت وأجابت " وَحُقَّتْ

---

(١) البحر المحيط ١٠ / ١٢٣ .

(٢) الدر المصون ١٠ / ٢٦٦ .

" أي وحق لها أن تسمع وتجيب وتطيع يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ " إنك عامل بتكاليفه دوام بقائك في الدنيا ثم تعود إليه يوم القيامة فيحاسبك على ما قدمت في هذه الحياة من خير أو شر ، فتجد عنده ثواب ما قدمت لنفسك إن كنت من أهل السعادة ، أو جزاء ما جنيته عليها إن كنت من أهل الشقاء .

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : قال الأخفش : " وأما " إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ " فعلى معنى " يا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ " على التقديم والتأخير [١] . وَاخْتُلِفَ فِي جَوَابِ إِذَا ، فَقَالَ الْفَرَّاءُ : إِنَّهُ أَذِنَتْ ، وَالْوَاوُ زَائِدَةٌ ، وَكَذَلِكَ أَلْقَتْ . قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : هَذَا غَلَطٌ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ لَا تُقْحِمُ الْوَاوَ إِلَّا مَعَ حَتَّى إِذَا كَقَوْلِهِ : حَتَّى إذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها [سورة الزمر : ٧٣] وَمَعَ لَمَّا كَقَوْلِهِ: فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنادَيْناهُ [سورة الصافات : ١٠٣] وَلَا تُقْحَمُ مَعَ غَيْرِ هَذَيْنِ . وَقِيلَ : إِنَّ الجواب قَوْلُهُ : فَمُلاقِيهِ أَيْ : فَأَنْتَ مُلَاقِيهِ ، وَبِهِ قَالَ الْأَخْفَشُ . وَقَالَ الْمُبَرِّدُ : إِنَّ فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا ، أَيْ : يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ . وَقَالَ الْمُبَرِّدَ أَيْضًا : إِنَّ الْجَوَابَ قَوْلُهُ : فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ وَبِهِ قَالَ الْكِسَائِيُّ ، وَالتَّقْدِيرُ : إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَحُكْمُهُ كَذَا ، وَقِيلَ : هُوَ يَا أَيُّهَا الْإِنْسانُ عَلَى إِضْمَارِ الْفَاءِ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ يَا أَيُّهَا الْإِنْسانُ عَلَى إِضْمَارِ الْقَوْلِ ، أَيْ : يُقَالُ لَهُ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ، وَقِيلَ : الْجَوَابُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ بُعِثْتُمْ ، أَوْ لَاقَى كُلُّ إِنْسَانٍ عَمَلَهُ ، وَقِيلَ : هُوَ مَا صَرَّحَ بِهِ فِي سُورَةِ التَّكْوِيرِ ، أَيْ : عَلِمَتْ نَفْسٌ هَذَا [٢] هذه جملة أقوال أهل اللغة في بيان جواب الشرط الذى صدرت به السورة ، وذهب الأخفش وتبعه المبرد أن في الكلام تقديم وتأخير بتقديم النداء وما في حيزه على الشرط والتقدير: يا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ .

---

(١) معانى القرآن للأخفش ٢ / ٥٧٤ .

(٢) فتح القدير ٥ / ٤٩١ ، ٤٩٢ ، وانظر : زاد المسير لابن الجوزي ٤ / ٤١٩ .

الأنموذج التاسع عشر : قوله تعالى : " وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى " [الأعلى : ٤ ، ٥] .

المعنى العام للآيات : أمر الله نبيه ومصطفاه وأمته بتسبيحه جل وعز وتنزيهه عن كل نقص وعيب أو أن يذكر بعدم إجلال واحترام فقال : " سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى " والأعلى صفة للرب دالة على علوه على خلقه ، فالمخلوقات جميعها تحت إمرته وسلطانه ، وهو القاهر فوق عباده له القدرة المطلقة في خلقه ومن دلائلها أنه خلق فسوى أي أوجد من العدم المخلوقات وسوى خلقها ، وهداها لما فيه منافعها ، وما تستطيع أن تحافظ به على بقائها فهو الذى قَدَّرَ فَهَدَى " " وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى " أي ما ترعاه البهائم من الحشيش والعشب والكلأ . " فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى " أي فجعله بعد الخضرة والنضرة هشيما متفرقا يابسا بين سواد وبياض وهي الحوة

أسلوب التقديم والتأخير في الآية : ذهب الفراء وأبو عبيدة إلى القول بالتقديم والتأخير في هاتين الآيتين والتقدير : أخرج المرعى أحوى ، فجعله غثاء . فقال الفراء – رحمه الله – وقوله ﷻ : فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى (٥) . إذَا صار النبت يبيسًا فهو غثاء . والأحوى : الَّذِي قَدِ اسودّ عَنِ العتق ويكون أيضًا : أخرج المرعى أحوى ، فجعله غثاء ، فيكون مؤخَّرًا معناه التقديم [١] .

وذكر الإمام الطبري قولين في تأويل الآيتين فقال : " الأحوى : شديد السواد ، أو الأخضر الضارب إلى السواد من شدة الخضرة . والغثاء : الهشيم اليابس . وفي معنى الآية قولان :

الأول : أن الله أخرج المرعى أخضر، ثم جعله من بعد الخضرة هشيماً متكسراً، مائلاً إلى السواد من القدم.

الثاني : أن الله أخرج المرعى أحوى ؛ أي : أخضر شديد الخضرة ، مائلاً بشدة

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣ / ٢٥٦ .

خضرته إلى السواد ، ثم جعله هشيماً متكسراً ، ويكون على هذا القول (أحوى) مؤخراً حقه التقديم .

قال ابن جرير الطبري معلقاً على هذا القول : وهذا القول وإن كان غير مدفوع أن يكون ما اشتدت خضرته من النبات قد تسميه العرب أسود، غير صواب عندي ، بخلاف تأويل أهل التأويل في أن الحرف إنما يحتال لمعناه المجرد بالتقديم والتأخير إذا لم يكن له وجه مفهوم إلا بتقديمه عن موضعه ، أو تأخيره ، فأمَّا وله في موضعه وجه صحيح فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير [١] .

وفصل الإمام الرازي القول فذكر أسباب تحول المرعى إلى الحوة فقال : الْحَوَّةُ السَّوَادُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْأَحْوَى هُوَ الَّذِي يَضْرِبُ إِلَى السَّوَادِ إِذَا أَصَابَتْهُ رُطُوبَةٌ ، وَفِي أَحْوَى قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ نَعْتُ الْغُثَاءِ أَيْ صَارَ بَعْدَ الْخُضْرَةِ يَابِسًا فَتَغَيَّرَ إِلَى السَّوَادِ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ السَّوَادِ أُمُورٌ أَحَدُهَا : أَنَّ الْعُشْبَ إِنَّمَا يَجِفُّ عِنْدَ اسْتِيلَاءِ الْبَرْدِ عَلَى الْهَوَاءِ ، وَمِنْ شَأْنِ الْبُرُودَةِ أَنَّهَا تُبَيِّضُ الرطب وتسود الْيَابِسَ . وَثَانِيهَا : أَنْ يَحْمِلَهَا السَّيْلُ فَيَلْصَقُ بِهَا أَجْزَاءٌ كَدِرَةٌ فَتَسْوَدُّ . وَثَالِثُهَا : أَنْ يَحْمِلَهَا الرِّيحُ فَتَلْصَقُ بِهَا الْغُبَارُ الْكَثِيرُ فَتَسْوَدُّ . الْقَوْلُ الثَّانِي : وَهُوَ اخْتِيَارُ الْفَرَّاءِ وَأَبِي عُبَيْدَةَ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْأَحْوَى هُوَ الْأَسْوَدُ لِشِدَّةِ خُضْرَتِهِ ، كَمَا قيل : مُدْهامَّتانِ [الرحمن : ٦٤] أَيْ سَوْدَاوَانِ لِشِدَّةِ خُضْرَتِهِمَا ، وَالتَّقْدِيرُ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى أَحْوَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً ، كَقَوْلِهِ : وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً [الْكَهْفِ : ١ ، ٢] أَيْ أُنْزِلَ قَيِّمًا ولم يجعل له عوجا [٢] .

والذى أراه أن معنى الآية يحتمل التأويلين السابقين فيجوز أن يكون قوله " أحوى " صفة لعثاء والمعنى أن المرعى والكلأ الأخضر صار يابسا هشيما وتحول من الخضرة إلى السواد وهذا المعنى موافق لنظم الآية والمعنى الثاني : أن يكون " أحوى " صفة للمرعى

---

(١) جامع البيان ٢٤ / ٣٧٠ .

(٢) التفسير الكبير ٣١ / ١٣٠ .

أجعل المرعى أحوى من شدة الخضرة كأنه يميل إلى السواد فجعله غثاء وهذا المعنى على التقديم والتأخير وكلا المعنيين محتمل إلا أن الأول راجح لموافقته ظاهر النظم .

الأنموذج العشرون : قوله تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ [سورة الغاشية الآيات ١ – ٣]

المعنى العام للآيات : صدرت السورة الكريمة بالاستفهام ليسترعي الانتباه وأن ما يعقبه في غاية الخطورة والأهمية ، وفى حيز الاستفهام خطاب من الله تعالى موجه لرسوله محمد ﷺ ولأمته يقول له فيه هل أتاك نبأ الغاشية وخبرها العظيم وحديثها المخيف ،فقد أتاك حديثها وما يقع فيها من أهوال وافتراق أحوال العباد إلى فريقين الأول : وجوههم خاشعة من الذل عليها الغبرة أجسامهم متعبة ذات نصب وتعب من جر السلاسل والأغلال، وتكليف أشق الأعمال فضلا عن ورودها النار الحامية التي لا تبقي ولا تذر .

أسلوب التقديم والتأخير في الآيات : ذهب ابن فارس – رحمه الله – إلى القول بالتقديم والتأخير في الآيات فقال : ومن ذلك قوله جلّ ثناؤه : " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ " يعني القيامَة " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ " وذلك يوم القيامَة ثم قال : " عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ " والنَّصَبُ والعملُ يكونان في الدنيا ، فكأنه إذاً على التقديم والتأخير معناه : وجوهٌ عاملة ناصبَةٌ في الدنيا ، يومئذ – أي يومَ القيامة – خاشِعة . والدليل على هذا قوله جلّ اسمه : " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ " [١] . فجعل العمل والنصب محله الدنيا وهى مقدمة على الآخرة ولهذا قال بالتقديم والتأخير في الآيات .

وفصل ابن تيمية – رحمه الله– القول فذكر وجهين في محل العمل : الأول أنه في الدنيا والثاني في الآخرة فقال ورجح وقوعه في الآخرة لموافقته لظاهر النظم ولا حاجة للتقديم والتأخير فقال : قَوْلُهُ : " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ " " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ " " عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ " " تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً " " تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ " فِيهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ

---

(١) الصاحبي ص ١٨٩ .

الْمَعْنَى وُجُوهٌ فِي الدُّنْيَا خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا حَامِيَةً وَيَعْنِي بِهَا عِبَادَ الْكُفَّارِ كَالرُّهْبَانِ وَعِبَادَ البدود وَرُبَّمَا تُؤُوِّلَتْ فِي أَهْلِ الْبِدَعِ كَالْخَوَارِجِ . والْقَوْلُ الثَّانِي " أَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَخْشَعُ أَيْ تَذِلُّ وَتَعْمَلُ وَتَنْصَبُ قُلْت هَذَا هُوَ الْحَقُّ لِوُجُوهِ : " أَحَدُهَا " أَنَّهُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يَتَعَلَّقُ الظَّرْفُ بِمَا يَلِيهِ أَيْ : وُجُوهٌ يَوْمَ الْغَاشِيَةِ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ صَالِيَةٌ . وَعَلَى الْأَوَّلِ لَا يَتَعَلَّقُ إلَّا بِقَوْلِهِ (تَصْلَى) وَيَكُونُ قَوْلُهُ (خَاشِعَةٌ) صِفَةً لِلْوُجُوهِ قَدْ فَصَلَ بَيْنَ الصِّفَةِ وَالْمَوْصُوفِ بِأَجْنَبِيٍّ مُتَعَلِّقٍ بِصِفَةٍ أُخْرَى مُتَأَخِّرَةٍ وَالتَّقْدِيرُ : وُجُوهٌ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ يَوْمَئِذٍ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً . وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ عَلَى خِلَافِ الْأَصْلِ؛ فَالْأَصْلُ إقْرَارُ الْكَلَامِ عَلَى نَظْمِهِ وَتَرْتِيبِهِ تَغْيِيرُ تَرْتِيبِهِ . ثُمَّ إنَّمَا يَجُوزُ فِيهِ التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ مَعَ الْقَرِينَةِ أَمَّا مَعَ اللَّبْسِ فَلَا يَجُوزُ ؛ لِأَنَّهُ يَلْتَبِسُ عَلَى الْمُخَاطَبِ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَا قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ؛ بَلْ الْقَرِينَةُ تَدُلُّ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فَإِرَادَةُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ بِمِثْلِ هَذَا الْخِطَابِ خِلَافُ الْبَيَانِ وَأَمْرُ الْمُخَاطَبِ بِفَهْمِهِ تَكْلِيفٌ لِمَا لَا يُطَاقُ . " الْوَجْهُ الثَّانِي " أَنَّ اللَّهَ قَدْ ذَكَرَ وُجُوهَ الْأَشْقِيَاءِ وَوُجُوهَ السُّعَدَاءِ فِي السُّورَةِ فَقَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ " " لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ " "فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ " وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ إنَّمَا وَصَفَهَا بِالنِّعْمَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا فِي الدُّنْيَا ؛ إذْ هَذَا لَيْسَ بِمَدْحٍ فَالْوَاجِبُ تَشَابُهُ الْكَلَامِ وَتَنَاظُرُ الْقِسْمَيْنِ لَا اخْتِلَافُهُمَا وَحِينَئِذٍ فَيَكُونُ الْأَشْقِيَاءُ وُصِفَتْ وُجُوهُهُمْ بِحَالِهَا فِي الْآخِرَةِ . " الثَّالِثُ " أَنَّ نَظِيرَ هَذَا التَّقْسِيمِ قَوْلُهُ : " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ " [١] .

مما تقدم يتضح لنا ترجيح القول بأن محل العمل والنصب يوم القيامة؛ لموافقته لظاهر النظم ، ولا ضرورة هنا ملجئة للقول بالتقديم والتأخير ، وخاصة أن موضوع السورة القيامة وأهوالها وما يعترى أهلها من صفات وأحوال ، فكان حمل النظم على ظاهر نسقه أولى من القول بالتقديم والتأخير .

---

[١] مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٦ / ٢١٧ ، ٢١٨ .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين وشفيعنا يوم الدين .

وبعـــد

فبعون الله وتوفيقه انتهيت من هذه الدراسة التي لم آلو فيها جهداً ، ولم أدخر فيها وسعاً وطاقة .

وكان من ثمار هذه الدراسة الوقوف على النتائج التالية :

١- أسلوب التقديم والتأخير من فنون القول وسنن الكلام الذى ألفته العرب في لغتها واستعملوه في المنظوم والمنثور من كلامهم .

٢- جرى القرآن الكريم على سنن العرب المعهودة في كلامهم فجاء بجنس ما ألفوه من فنون القول وأساليب البيان حتى يتم التحدي ويظهر الإعجاز ببراعته في التفنن والتنوع في فنون القول ثم خرج بها عن المعهود من كلامهم وجاء بما لا قبل لهم به ، وشهد بذلك القاصي والداني والعدو والصديق ، وعلموا أنه ليس في إمكانهم محاكاته أو الإتيان بأقل سورة منه فظهر الإعجاز بذلك ، ومن هذه الأساليب أسلوب التقديم والتأخير .

٣- بعد البحث والدراسة في النماذج السابقة التي أسفرت عن سلامة القول بالتقديم والتأخير في بعضها من الاعتراض والمآخذ، واشتمالها على نكات بلاغية ودقائق بيانية ، وما قد اعترى بعضها الآخر من النقد والرد لعدم الحاجة إليه لاستقامة المعنى على ظاهر النظم . أقول بجواز التقديم والتأخير عند أمن اللبس واستقامة المعنى عليه مع وجود قرينة دالة عليه ، فإذا أمكن حمل الكلام على الترتيب ولا توجد ضرورة ملجئة للتقديم والتأخير فيبقى الكلام على أصله .

وبعد فهذا غيث من فيض ورشفة من يم أرجو بها النفع لأمة خاتم النبيين وأن يأخذ بأيديهم إلى الطريق المستقيم ، وأن يكون خالصا لوجهه الكريم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

راجي عفو ربه ورحمته

مصطفى شعبان البسيوني مسعد

ثبت المصـــادر

أولاً : التفسير وعلـوم القـرآن :

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم .

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الحكيم لأبي السعود العمادي ، ط : دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٣- إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس ، ط : منشورات محمد علي بيضون ، ط : دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ .

٤- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ، تحقيق : صدقي محمد جميل ، ط : دار الفكر بيروت ١٤٢٠ هـ .

٥- البرهان في علوم القرآن للزركشي ، ط : دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٧م ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم .

٦- التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ، ط : الدار التونسية .

٧- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي ، تحقيق الدكتور : عبدالله الخالدي ، ط : دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ .

٨- تفسير البسيط للواحدي ، ط : سلسلة الرسائل العلمية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض .

٩- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ، ط : مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية – الطبعة الثالثة ١٤١٩ هـ .

١٠- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة الثانية سنة ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

١١- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ط دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة

الثالثة سنة ١٤٢٠ هـ .

١٢- جامع البيان لابن جرير الطبري تحقيق أحمد شاكر ط مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

١٣- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي تحقيق د / أحمد محمد الخراط دار القلم دمشق .

١٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي تحقيق علي عبد الباري عطية ط دار الكتب العلمية الطبعة الأولى سنة ١٤١٥ هـ .

١٥- زاد المسير لابن الجوزي ط المكتب الإسلامي بيروت - الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٤ هـ .

١٦- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ط دار الكتب العلمية بيروت الأولى سنة ١٤١٦ هـ .

١٧- فتح القدير للشوكاني ط دار ابن كثير ودار الكلم الطيب دمشق بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤١٤ هـ .

١٨- فهم القرآن ومعانيه للحارث المحاسبي تحقيق حسين القوتلي ط دار الكندي ودار الفكر بيروت الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨ هـ .

١٩- الكشاف للزمخشري ، ط : دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثانية ، سنة ١٤٠٧ هـ .

٢٠- اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ط دار الكتب العلمية ببيروت .

٢١- محاسن التأويل للقاسمي ، ط : دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٤١٨ هـ .

٢٢- معالم التنزيل للبغوي تحقيق عبد الرازق المهدي ط دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠ هـ .

٢٣- معاني القرآن للأخفش تحقيق د/هدى محمود قزاعة ط مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م .

٢٤- معاني القرآن للفراء ، تحقيق : أحمد يوسف النجاتي ، ط : الدار المصرية للتأليف والترجمة – مصر ، الطبعة الأولى .

٢٥- معاني القرآن وإعرابه للزجاج تحقيق عبدالجليل عبده شلبي ط عالم الكتب بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م .

٢٦- المنار محمد رشيد رضا، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م.

٢٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ، ط : دار الكتاب الإسلامي – القاهرة .

٢٨- النكت والعيون للماوردي ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت .

ثانياً : السنة وعلومها :

١- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل للألباني ط المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥م

٢- السلسلة الصحيحة للألباني ط مكتبة المعارف الرياض الطبعة الأولى

٣- سنن أبي داود ، ط : المكتبة العصرية – صيدا – بيروت ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد .

٤- صحيح ابن حبان ط مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية سنة١٩٩٣م

٥- صحيح البخاري ط دار طوق النجاة الطبعة الأولى سنة١٤٢٢ه

٦- صحيح مسلم ط دار إحياء التراث العربي بيروت

٧- مسند أحمد ط مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١م

ثالثاً : النحو والبلاغة واللغة:

١- الأصول في النحو لابن السراج ط مؤسسة الرسالة بيروت

٢- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع ابن الأزرق د / عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ط دار المعارف الطبعة الثالثة

٣- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعي ط دار الكتاب العربي بيروت الثامنة سنة ٢٠٠٥م ١٤٢٥ه

٤- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ط دار الفكر تحقيق علي مهنا وسمير جابر

٥- الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ط مكتبة الآداب .

٦- البلاغة العربية لابن حبنكة الميداني ط دار القلم دمشق الأولى سنة١٤١٦ه ١٩٩٦م

٧- التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين لأبي البقاء العكبري تحقيق عبد الرحمن العثيمين ط دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى سنة١٤٠٦ه ١٩٨٦م

٨- التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا للمبرد تحقيق إبراهيم محمد حسن الجمل ط نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

٩- جواهر البلاغة للسيد الهاشمي ط دار الكتب العلمية

١٠- الخصائص لابن جنيط عالم الكتب بيروت تحقيق محمد على النجار

١١- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود شاكر ط مكتبة المدني القاهرة ط دار المدني بجدة الطبعة الثالثة سنة١٤١٣ه ١٩٩٢م

١٢- ديوان امرئ القيس

١٣- ديوان ذي الرمة

١٤- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لابن فارس ط محمد علي بيضون الطبعة الأولى سنة ١٤١٨ه

١٥- علوم البلاغة البيان المعاني البديع أحمد مصطفى المراغي بدون

١٦- القطع والائتناف لأبي جعفر النحاس تحقيق أحمد خطاب العمر ط مطبعة المدني بغداد ١٣٩٨م

١٧- الكامل في اللغة والأدب للمبرد تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط دار الفكر العربي القاهرة الثالثة سنة ١٤١٧ه ١٩٩٧م

١٨- الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون ط مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة الثالثة سنة١٤٠٨ه ١٩٨٨م

١٩- المثل السائر لابن الأثير ط المكتبة العصرية بيروت سنة١٤٢٠ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد

٢٠- المقتضب للمبرد تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ط عالم الكتب بيروت

٢١- نقد الشعر لقدامة بن جعفر مطبعة الجوائب – قسطنطينية الطبعة: الأولى سنة ١٣٠٢ هـ

رابعاً: كتب الفقه وأصوله:

١- شرح تنقيح الأصول للقرافي شركة الطباعة الفنية المتحدة الطبعة الأولى سنة ١٣٩٣ه ١٩٧٣م

٢- مجموع الفتاوى لابن تيمية تحقيق عبد الرحمن محمود بن محمد قاسم ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف المدينة المنورة سنة ١٤١٦ه ١٩٩٥م

خامساً: كتب التاريخ والتراجم:

١- سير أعلام النبلاء للذهبي ط مؤسسة الرسالة الثالثة سنة ١٤٠٥ه ١٩٨٥م

٢- الشعر والشعراء لابن قتيبة ط دار الحديث القاهرة ١٤٢٣ه

٣- طبقات فقهاء الشافعية لابن الصلاح تحقيق محيى الدين على نجيب ط دار البشائر الإسلامية بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م

٤- الوافي بالوفيات صلاح الدين الصفدي ط دار إحياء التراث سنة ٢٠٠٠م

٥- وفيات الأعيان لابن خلكان ط دار صادر بيروت سنة ١٩٧١م .

فهرس المحتويات

المقدمة ٢

تمهيد ٥

المبحث الأول : أنواع التقديم والتأخير ١١

النَّوْعُ الأَوَّلُ : مَا قُدِّمَ وَالْمَعْنَى عَلَيْهِ ١١

النَّوْعُ الثَّانِي : مِمَّا قُدِّمَ النِّيَّةُ بِهِ التَّأْخِيرُ ١٩

المبحث الثاني : أسلوب التقديم والتأخير بين المؤيدين والمعارضين ٢٤

المبحث الثالث : نماذج مختارة من أسلوب التقديم والتأخير في تنزيل الحكيم الخبير ٣٧

الأنموذج الأول : قوله تعالى : وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٧

الأنموذج الثاني : قَوْلُهُ تعالى : " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ٤١

الأنموذج الثالث : قوله تعالى : إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٤٣

الأنموذج الرابع : قوله تعالى : " وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ٤٨

الأنموذج الخامس : قوله تعالى : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ

وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ٥١

الأنموذج السادس : قوله تعالى : كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ٥٤

الأنموذج السابع : قوله تعالى : فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ٥٦

الأنموذج الثامن : قوله تعالى : " اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ٥٨

الأنموذج التاسع : قوله تعالى : " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قيما ٦١

الأنموذج العاشر: قوله تعالى: وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى ٦٣

الأنموذج الحادي عشر : قوله تعالى : وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ ٦٤

الأنموذج الثاني عشر: قوله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ٦٦

الأنموذج الثالث عشر : قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ٦٨

الأنموذج الرابع عشر : قال تعالى : احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ.....٧٠

الأنموذج الخامس عشر : قوله تعالى : (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ٧٢

الأنموذج السادس عشر : قوله تعالي : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ.....٧٣

الأنموذج السابع عشر: قوله تعالى : "وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٧٥

الأنموذج الثامن عشر : قوله تعالى : " إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ " ٧٧

الأنموذج التاسع عشر: قوله تعالى: وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى.....٧٩

الأنموذج العشرون : قوله تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ٨١

الخاتمة ٨٣

ثبت المصادر ٨٥